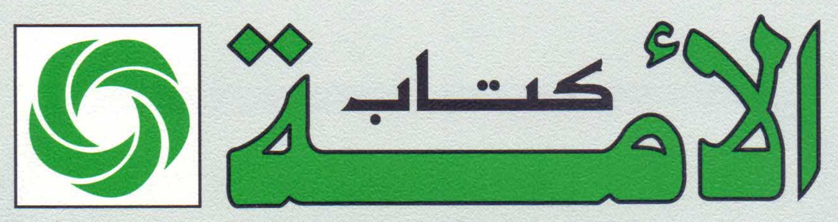


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٦١ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ السنة الرابعة والثلاثون

تكامل الحضارات
بين الإشكاليات والإمكانيات



أ.د. عطا محمد حسن زهرة

عطا محمد حسن زهرة

* دكتوراه في العلوم السياسية (جامعة القاهرة).

* يعمل أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة اليرموك (الأردن).

* عضو في عدد من الجمعيات الأكاديمية العربية، للعلوم السياسية.

*صدر له عدد من الكتب والدارسات، منها:

- النظم السياسية العربية المعاصرة، جزأين (مشترك).
- في الأمن القومي العربي.
- الاستعمار والفراغ (مشترك).
- أصول العمل الدبلوماسي.
- تاريخ وحضارة الأردن (مشترك).
- مقدمة في العلوم السياسية.
- يهودية إسرائيل: رؤية مستقبلية.
- النظريات المعاصرة في العلاقات الدولية.

*إلى جانب الكثير من الدراسات في المجلات العلمية المتخصصة.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص. ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. محاولة لفتح ملف التكامل الحضاري كأولوية، بعد أن صار العالم إلى ما هو عليه من التواصل الاجتماعي والثقافي، الأمر الذي جعل السوق الحضارية العالمية مكاناً متاحاً لتعرض كل أمة منتجات حضارتها، كما تدلل على دورها في عملية الإنقاذ الإنساني.

وعلى الرغم من المحاولات الواهنة، التي أعقبت الحروب العالمية، لإيجاد مؤسسات عالمية تشكل مجالات للتفاهم والحوار، وتجنيب العالم الكوارث، مثل منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية والمنظمات التابعة لها، إلا أن عطاءها ما يزال متواضعاً، فهي أشبه ببيت العنكبوت، الذي لا يلتقط إلا الحشرات الضعيفة، وتمزقه الحيوانات والهوام القوية.

ولعل الإشكالية الكبرى تكمن في فلسفة الحضارة، التي تنتج برامجها، وتطبع سلوك أهلها.. فالحضارة التي تقوم فلسفتها على اعتماد العنصرية والصراع، سواء في ذلك الفلسفة الماركسية، التي تؤسس للصراعات، بين الطبقات، بين الفقراء والأغنياء، بين الرجل والمرأة، وبين الأجيال، أو فلسفة الحضارة الرأسمالية واعتمادها القوة وصراع الحضارات، والاعتقاد أن البقاء للأقوى وليس للأصلح، غير مؤهلة للاضطلاع بالدور الإنساني العظيم.

وما لم يتم الارتقاء بفلسفة الحضارة، والارتفاع إلى مستوى البعد الإنساني، واعتماد التحاور بدل المواجهة، والسعي لإيجاد الصيغ المشتركة لخير الإنسانية، فإن التسلط والهيمنة ستستمر، وإن اختلفت العناوين.

لقد عرض الباحث لمقومات التكامل الحضاري، وحاول ما أمكنه السعي للتدليل على أهمية ذلك، كما عرض لمعوقات التكامل الحضاري، وبحث في أسبابها، وكيفية تجاوزها، والتأكيد أن التنوع في الأفراد والأمم والحضارات يبقى مصدر إثراء وغنى.

والأمل معقود أن يؤدي هذا التفاعل والتدافع الحضاري البطيء، الذي يشتد عوده يوماً بعد يوم، إلى حصحصة الحق، والتوجه صوب اختيار الأصلح، للخلاص من الشقوة الإنسانية، وذلك بالتوجه صوب عطاء حضارة النبوة، التي تؤسس للحرية والمساواة، كثمرة لوحدانية الله.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

تكامل الحضارات
بين الإشكاليات والإمكانيات

أ.د. عطا محمد حسن زهرة

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٥هـ

آذار (مارس) ٢٠١٤م

عطا محمد حسن زهرة.

تكامل الحضارات.. بين الإشكاليات والإمكانيات.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٤م.

١٣٦ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٦١)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٠٥ / ٢٠١٤

الرقم الدولي (ردمك): ٤ - ٨٩ - ٩٢ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي خلق الإنسان اجتماعياً بطبعه وجبلّته، ليكون التلاقي والتفاعل سنة اجتماعية ونزوعاً فطرياً، كما جعل من آياته، التي تدعو للتأمل والتدبر والتفكر والاعتبار: اختلاف الألسنة والألوان، وتعاقب الليل والنهار، كآيات ظاهرة ودليل لما وراء هذا التنوع والتعددية في الخلق من الحِكَم، على مستوى الكون والإنسان والحياة، وجعل الفوارق الفردية والتنوع الاجتماعي والأنماط الحضارية سبيلاً للتنافس والتدافع والسباق والكسب والتمايز في مضمار الخير، كما جعله سبيلاً لشحذ الهمم واستنبات الطاقات الكامنة ومحرضاً للمغالبة في السباق على الفعل الحضاري.

فلقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون علّة التنوع في الخلق والاجتماع البشري متأتية من وحدة الأصل الممهدة للتعاون والتعايش والتكامل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء: ١)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ (الحجرات: ١٣)، وبذلك جعل المفاضلة منوطة بكسب الإنسان وفعله

واختياره وليس في لونه وجنسه وجميع الفوارق القسرية الأخرى، التي لا يد له في وجودها، إقراراً لمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص، وليكون ذلك تحقيقاً للعدل وميداناً للتسابق الحضاري وحافزاً لفعل الخيرات، فالأكرم هو الأتقى، والكريم في أبسط صفاته هو المعطاء للآخرين، المتكافل معهم.

لذلك نرى أن تحقيق (الذات) السوية وحسن بنائها في هذا السياق وسبيل نجاتها منوط بالتعاون والتكامل والتعايش مع الآخرين وإنقاذهم، فـ«**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**» (المعجم الكبير للطبراني)، و«**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (أخرجه البخاري)، فبناء (الآخر) والاهتمام به والتكامل معه، أخذاً وعطاءً، جزءٌ من بناء (الذات)، والاعتزاز بها، وسبيل قربها من الله، في التصور الإسلامي.

لذلك نسارع إلى القول هنا: إن (الذات) المشوَّهة أو غير السوية، وغير المؤمنة بالله الواحد، وغير المتوازنة، وغير المتكاملة مع نفسها غير مؤهلة أو مهيأة للتكامل والتكافل مع الآخرين؛ لأنها تستبد بها الأثرة والأنانية والانغلاق والتعصب، ولا تدرك قيمة (الآخر)، ولا تستشعر الإيثار والغيرية نحوه.

والصلاة والسلام على نبي الرحمة الإنسانية وأنموذج بناء الحضارة الإنسانية، الذي تجسدت جماع المعاني الإنسانية في شخصيته، عليه الصلاة والسلام، ومن ثم جسدها في نفوس الناس وواقعهم، ومكّن لها ودرب عليها حتى باتت وكأنها خصائص عضوية (بيولوجية) في مسالكهم، فطبعت حياتهم،

وأصبحت مجالاً للتوارث الاجتماعي بين الأجيال، ومجالاً للتسابق والتنافس في فعل الخير.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الواحد والستون بعد المائة: «تكامل الحضارات.. بين الإشكاليات والإمكانيات»، للأستاذ الدكتور عطا محمد حسن زهرة، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، مساهمة منها في إبراز ملامح وسمات منهج النبوة، محل الاقتداء وميدان المقاربة، وبيان مواصفاته الإنسانية ومقاصده في تحقيق الرحمة للعالمين جميعاً، وتأسيس الأخوة، وحماية الكرامة الإنسانية، وإشاعة قيم العدل بين الناس، كل الناس، واسترداد ما يجب أن يكون عليه الفرد المسلم اليوم من الإيجابية والإيثار والتنافس على الخير، والسعي إلى إزالة الحواجز والقواطع والفواصل النفسية والمادية، وتوجيه الخلق صوب اكتشاف الصيغ الإنسانية المشتركة، التي دعا إليها الأنبياء جميعاً، ورفع الوصاية الدينية من البشر على البشر، التي كانت ولا تزال سبيلاً للتسلط والابتزاز، وربط الفرد بربه مباشرة، وبناء الفرد المتوازن المتكامل مع نفسه ليكون أهلاً للتعاون والتعايش والتكامل مع الآخرين -كما أسلفنا- وإحياء عالمية الرسالة الإسلامية وعالمية الأمة الإسلامية، وإبراز إنسانية قيم النبوة، والتحضير لمعاودة إنتاج الجوانب الخيِّرة في مسيرة الحضارة الإنسانية المتوقفة، بعيداً عن

التعصب والتكلف والإكراه والإقصاء والغلو والتطرف، والتأسيس والتأصيل لمنهج الوسطية والاعتدال، وإشاعة قيم التسامح، وكفالة حرية التدين، وتحويل شعار: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إلى شعيرة وممارسة عملية تثير الاقتداء وتخلص الناس من التسلط والاستعباد.

وقد لا نأت بجديد إذا قلنا: إن التجربة الحضارية التاريخية الإسلامية، التي جاءت ثمرة لقيم الوحي، ساهمت فيها جميع الشعوب والأعراق والأجناس والألوان والجغرافيا، واستطاعت منذ وقت مبكر في حياة البشرية إلغاء التمييز العنصرية وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وتعبيد الناس جميعاً لإله واحدٍ يتساوى أمامه الجميع، وأن تبني حضارة إنسانية، وتؤصل وتؤسس قيماً مشتركة، بحيث يجد كل إنسان نفسه فيها وجزءاً منها، ذلك أن ما تتمتع به الحضارة الإسلامية من قيم إنسانية متأتية من الوحي، من خارج الإنسان، عصم أهلها من التسلط والهيمنة والتعالي والانغلاق والتحيز، وجعلها في كل زمان ومكان المأمن الحقيقي للإنسان، كما أنه يؤهلها اليوم، وفي هذه الظروف الدولية بالذات، وهذا اللقاء الإنساني والتواصل الجغرافي والحضور المعلوماتي والإعلامي لتقديم القيم الإنسانية، التي يستظل بها الجميع، ويؤوي إليها الجميع، ويفر إليها الجميع من جديد: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ (الذاريات: ٥٠)، إذ لا عبرة بصور التدين المصنوع والمخترق والمغشوش، التي تطفو على السطح الإسلامي والتي تساهم بتشويه صورة الإسلام وإقامة الحواجز بينه وبين الإنسان، في محاولة لتحويل دولته وحضارته إلى كسروية وقيصرية، والتهوين من

قيمه، وتفسيرها حسب الهوى ومقتضيات المغالبة السياسية لتبرير الوسائل غير المشروعة في الوصول إلى الحكم.

ولعلنا نقول: إن من أهم ما امتازت وتمتاز به الحضارة الإسلامية نزوعها الإنساني، فهي قيم الإنسان وحضارة الإنسان، حيثما هو وحيثما كان، واعترافها بـ(الآخر)، وتقدير دوره في صناعة التاريخ الحضاري، والإقرار بما هو عليه من المكارم ومحاسن الأخلاق، وما يمتاز به من الكرم والوفاء والعدل والصدق والتعايش، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين:١)، ويقول: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، والرسول ﷺ يوجه المسلمين، أصحاب المظلومية في مكة للهجرة، ويقول لهم: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**» (ابن كثير، البداية والنهاية)، فالحبشة بتلك الصفات، التي تمتلكها، كانت مؤهلة لأن تصبح دار هجرة للمسلمين الأوائل في حينها.

بل لقد كان مجتمعها الأول، أو نواتها الحضارية الأولى، مجتمع الألوان والأجناس والتفاوت الاجتماعي، المنسجم المتعاون المتكافل المتكامل، فبلال إلى جانب أبي بكر وعمر، وسلمان إلى جانب عثمان وعلي، رضي الله عنهم جميعاً، والفقراء في كنف الأغنياء، والقيم العليا واستباق الخيرات متاح للكسب الفردي: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ (المائدة:٤٨)، فالأكرم الأتقى، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢)، ويقول: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:٥٤)، فالمعيار كسبي، متاح لكل إنسان، وليس قصرياً ينتهي بالحضارة إلى التميز والعنصرية والانحياز.

ولعل مما يلفت النظر ويتطلب أن تعيه الآذان الواعية في هذا السياق، مجال التعاون والتعارف والتكامل، أن الإسلام اعترف بالأديان القائمة جميعاً، والأنبياء جميعاً، وعرض لسيرتهم ودعوتهم وتعاليمهم، وما نالها من عبث الإنسان، كما عرض لوسائل دعوتهم وصفاتهم وخصائصهم، وجاء مكملاً لها، ولبنة مكملة في بنائها الإنساني الكبير، والقرآن جاء جماع الكتب السماوية، والرسول النبي ﷺ جماع الرسل والأنبياء، يقول تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦)، ويقول الرسول ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ» (أخرجه البخاري)، ويقول: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلاَّتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ» (أخرجه مسلم)، وفي رواية: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ» (أخرجه مسلم).

والقرآن جاء مصدقاً لما بين يديه (سبقه) من الكتاب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة:٤٨)، والرسول ﷺ يقول: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**» (أخرجه البخاري)، لذلك فليس الاعتراف بـ(الآخر) واللقاء على مكارم الأخلاق وحميد الصفات والمشترك الإنساني أمراً عارضاً ظرفياً أو مناورة سياسية أو شعاراً ابتزازياً، وإنما هو نزوع فطري، وتكليف شرعي، وضرورة اجتماعية، وتعاليم نبوية، وصفة إنسانية.

ولعلنا نقول: إن حضارة الإسلام، قيمياً وتاريخياً وواقعياً، في ضوء ذلك، وَسِعَت التاريخ العام الإنساني، وتاريخ النبوة من لدن آدم، عليه السلام، لذلك فهي ذات عمق تاريخي، وغنى إنساني، ابتداءً من النشأة الأولى وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة، وجاءت بأنموذج يُحتذى للتكامل والاكتمال والكمال؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣) -كما هو معلوم- لا يعني رسالة محمد ﷺ فقط، وهذا قائم بطبيعة الحال، وإنما يعني - فيما يعني- أن عندها وبها اكتملت وتكاملت مسيرة النبوة وحضارة النبوة ودين البشرية، من لدن آدم، عليه السلام، فهي تمثل الصورة المبكرة والخاتمة والخالدة للكمال والاكتمال والتكامل.

والشواهد الحضارية والثقافية في دنيا الناس اليوم قائمة في كل مكان، على الرغم من التقهقر والتراجع والتخلف، التي يعاني منها المسلمون، وما يمارس من اختراقات ومحاولات لإبراز الصور المشوهة لحقيقة الإسلام، لتنفير الناس منه؛ فالمسلمون اليوم من كل الأجناس، وكل الألوان، وكل التاريخ العام، وفي كل مواقع الأرض وجغرافيتها، موجودون يتعايشون مع غيرهم في البيئات والثقافات والحضارات والأعراق والأجناس، وتستوعب قيمهم الإنسانية، التي جاءت بها النبوة، قضايا الأمم والمجتمعات، ويتكيفون معها، ويرفدونها بقيم إنسانية تتمم مكارم الأخلاق، ويشكلون، في الوقت نفسه، دليلاً على إمكانية التعايش والتكامل والتبادل مع الحضارات والثقافات البشرية، ويلتقون على قيمها الفاضلة، ويساهمون ببنائها، فهم ثمرة لحضارتهم الإنسانية، التي حملت كل مساهمات البشر، حيثما كانوا.

فالحضارة الإسلامية حضارة مشترك الأنبياء جميعاً، ومشترك الناس جميعاً، وتكاملت فيها الحضارات جميعاً، فيها مساهمات هندية وفارسية ورومية وترية ومغولية وفرعونية، ويحق لكل هذه الأمم أن تدعيها لنفسها، وتعتبرها مكوناً أساساً في مسيرتها، فهي حضارة الحضارات جميعاً -كما أسلفنا- لم تتنكر لقيمة إنسانية، ولم تُكْرِه على دين، ولم تُسقط كرامة مخلوق أو إنسانية إنسان، وطلائعها اليوم في كل العالم لا يكتفون بالانتساب إليها وإنما يحملون قيمها، ويتعايشون بها مع (الآخر)، ويدعونه بدافع من إيمانهم إلى بناء مشترك إنساني متكامل تتلاقى عنده مصلحة البشرية ونزوعها الإنساني إلى العدل والسلم والحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وعدم التمييز، والبراءة من العنصرية والتحيز.

لذلك نقول: إن رصيد الحضارة الإسلامية من التكامل الحضاري، وعطاءها في هذا المجال، وتجربتها التاريخية، وقيمها الإنسانية الداعية إلى قبول (الآخر)، والتعارف معه، والمشاركة في إيجاد صيغ إنسانية يساهم بها الجميع، ويتعارف عليها ويعرفها الجميع، يؤهلها -كما أسلفنا - لأخذ زمام المبادرة، والاضطلاع بهذه المهمة الإنسانية، التي تسهم بالارتقاء والتحفيز والتفاعل والتبادل في المعارف والتجارب، والقضاء على أسباب التعصب والحقد والتحيز والعنصرية، والتحول من المواجهة، التي تكلف البشرية اليوم أمنها وتستنزف اقتصادها إلى الحوار والتعارف، والتحول من البحث عن نقاط الاختلاف وتضخيمها إلى البحث عن مواطن الائتلاف وتنميتها؛ فأمر التكامل والاعتراف بـ(الآخر) والتعاون معه ليس بدعاً بالنسبة للحضارة الإسلامية، بل هو عنوان لتكامل الحضارات التاريخية، حضارات الشعوب.

نعود إلى القول: إن التنوع في الخلق، كل الخلق، والفوارق الفردية، والتنوع الحضاري، والاختلاف الذي يأتي ثمرة لذلك هو سنَّة طبيعية، وواقع مشهود، ومكوِّن من مكونات الكون، فالتنوع قائم في الأشكال والألوان والأحجام والمناخات ومكونات الأرض والبيئة والمنتجات، ولكل نوع من هذه الأنواع دوره ووظيفته في العطاء، بحيث تتكامل العطاءات لتغني الحضارة الإنسانية وترفدها بكل مقومات العيش والتنافع والحياة المتوازنة، وتمكن من رؤية الحياة من زواياها المتعددة، والتعرف على آيات الله والحكمة الكامنة فيها، وتقدم الرؤى المتعددة، الأمر الذي يشكل غنى للحياة وقوة دفع لمسيرتها.

ولعل هذا التنوع من لوازم التكامل، ولو لم يكن الخلق على ذلك الشكل لاستحالت الحياة، واستحال الاجتماع البشري؛ فالاجتماع والتعاون واستدراك الحاجات من (الآخر) ثمرة لهذا التنوع، ولازمة من لوازمه، لكن تبقى الإشكالية الكبرى، التي رافقت مسيرة الحضارة تاريخياً: هل هذا التنوع والاختلاف مدعاة للصراع والانغلاق والتعصب والهيمنة والابتزاز والسيطرة ونهب خيرات الشعوب والأمم واستعمارها واستعبادها وتحويل هذه النعمة إلى نقمة؟ أم أنه يكون سبيلاً للتعايش والتعاون والمساواة وتكافؤ الفرص وإيجاد الصيغ الإنسانية المشتركة، التي ترقى بها البشرية، وتغيب فيها الأثرة، وتخمد نزعة العدوان، وتجد كل أمة نفسها في هذه الحضارة الإنسانية، وتعتبر أنها لبنة فيها، تتكامل معها وبها لإنجاز البناء الحضاري المتفاعل المتحاور المتداعي إلى كلمة سواء؟

ومن هنا تتأكد أهمية ودور القيم الضابطة والموجهة لمسيرة الحضارة، والمنظمة لعلاقاتها، وتقديرها (للآخر)، واستشعارها بالحاجة له، اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ودعوياً، وأنه من لوازم (الذات) ودلائل صدقها الواقعية، لذلك نقول: إنه من هنا تتأكد أهمية أن لا يشكل مصدر هذه القيم الضابطة للمسيرة مجالاً للتسلط والتعالي والهيمنة من أمة على أخرى، أو من حضارة على أخرى، وإنما تكون الأمم والحضارات أمامها سواء.

وهذا لا يتحقق إلا بأن يكون مصدر هذه القيم متأتياً من خارج الإنسان، الذي قد يعبث بها ويوظفها وفق غاياته وأهوائه حال أوكل إليه أمر

وضعها؛ أن تتأتى من مصدر خارج عن الإنسان يتمتع بالعلم المحيط والنزاهة والحيادية والعدل وسائر صفات الكمال أو صفات الألوهية المترفعة عن البشر، وبشكل أدق: من خالق الإنسان والكون والحياة؛ فالذي خلق هو الأعلم بمكونات الإنسان وتطور الأزمان وبما يصلح الناس ويقيهم الشرور، يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤).

ومن هنا نعتقد أن الحضارة الإسلامية مؤهلة دون سواها، سواء في ذلك قيمها المتأتية من الوحي أو تجربتها الحضارية التاريخية، أن تكون رائدة في مجال التعاون والتفاعل والتعايش والتكافل والتكامل الاجتماعي؛ لأن ذلك بالنسبة لها من ثمرات إيمانها وتنزيل قيمها على واقع الحياة.

وقد لا يكون من التكرار التأكيد أن هذه الحقيقة التاريخية لحضارة النبوات جميعاً، هي المؤهلة دون غيرها لبناء التكامل الحضاري، وتحقيق التعاون والمشترك الإنساني، والحيلولة دون الصراع والهيمنة والتعصب والتحيز والإقصاء، فقيمها وتاريخها وعطاؤها الواقعي، الذي تملأ شواهده التاريخ والحاضر، يؤهلها لأن تكون رائدة ودافعاً للتكامل الحضاري، ومانعاً من الصراع والمواجهة الحضارية، التي تعيشها حضارات اليوم، على الرغم من كل إنجازاتها المخادعة في المجال الإنساني، في كثير من الأحيان.

لذلك، فنحن عندما نتحدث عن حضارات اليوم لا يجوز أن نبخسها حقها ولا ما قدمته في أكثر من مجال، من الارتقاء بوسائل الإنسان وأشيائه، ولو كان ذلك على حساب التقهقر والتراجع في مجال الارتقاء بخصائص

وصفات وأفكار الإنسان، والارتقاء بإنسانيته، وحفظ كرامته، وتنمية إحساسه بـ(الآخر)، والتشارك معه في الحياة، والسعي إلى إيجاد الصيغ المشتركة لخير الإنسانية، وتحقيق القناعة لإنسان الحضارة المعاصرة بحاجته إلى (الآخر) وعطائه، لاستكمال البناء الحضاري الإنساني المشترك، ذلك أن التكامل الحضاري واستشعار دور (الآخر) والحاجة إلى ما عنده، في ثقافة الحضارة المعاصرة، أصبح يشكل اليوم حاجة وضرورة ومصلحة بشرية، لذلك لا بد للحضارة المهيمنة من التواضع الحضاري، وتغييب نزعة الأثرة والهيمنة والتعالي، واستشعار الحاجة لكل الخبرات والطاقات لتحقيق حضارة متكاملة من الجميع، يساهم فيها الجميع، كلٌ بما عنده، لتتكامل مسيرة البشرية نحو بناء مجتمع السلم والأمن والسعادة والرفه.

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الأمم ولا الأفراد على نمط متكرر ومواهب واحدة -كما أشرنا- وإنما اقتضى عدله أن يختص كل فرد وشعب وأمة بخصائص تتميز بها دون غيرها، ليجعل التلاقي والتعايش والتعاون والتكامل سنة جارية تحكم التجمع البشري، وتؤذن باللقاء والتعاون وقيام المعادلات الإنسانية.

لذلك نقول: الحكمة من توزيع الله المواهب والإمكانات على الأمم والشعوب، ليكون ذلك سبباً ودافعاً للقاء والتنافع والتعاون، وتكون الحضارة الإنسانية المتكاملة هي جماع حضارات وإمكانات ومواهب الأمم والشعوب وتفاعلها، أخذاً وعطاءً، فهذه الحضارات المتنوعة والمختلفة والمتفرقة هي في

الحقيقـة حـواس وأدوات ووسـائل، الأصـل أن تصـب وتتكامـل مـع حضـارة الإنسان، كل إنسان.

فالتكامل الحضاري من لوازم الخلق، والإمكان الحضاري الفكري والنفسي والمادي والثقافي والروحي ليس حكراً على أمة دون سواها، وإنما هو ميدان مفتوح للسبق والتنافس بين الجميع؛ والحضارة الإنسانية بحاجة إلى هذه الإمكانات جميعاً، والإنسانية بحاجة إلى توفر هذه الإمكانات، ولا يتحقق ذلك إلا بالتكامل الحضاري.

والحقيـقة الغـائبة الحاضـرة أن الحـاجـة كانـت ولاتـزال ملحـة لقـيم حضارية إنسانية تلم شعث الأمم والحضارات، وتستوعب ذلك التبعثر والتناحر الحضاري، وتهندس خارطته المنسجمة، وتضبط مسيرته القاصدة، وتحمي حدوده من الاعتداء، وتحفظ إنسانه من السقوط، بحيث يشكل ذلك فضاءها الحضاري، ومجال سعيها، وبذلك تؤدي مهمتها الرسالية تجاه استنقاذ الناس، وتوفير الحياة الطيبة، والخروج من المواجهة والصراع ونزعة الهيمنة والاستعباد والاستعمار للشعوب إلى الحوار والتعايش والتعاون والتكامل وتكافؤ الفرص.

نعاود القول: إن الحضارة الإسلامية مؤهلة للقيام بدور الإنقاذ لحضارة الإنسان، وملء الفراغ الحضاري من خلال قيمها المتأتية من الوحي، على الرغم من تقدم الأمم وتطور العلوم والمعارف، فهي حضارة الوحي المنفتحة على الإنسان، غير المتحيزة لجنس أو قوم أو لون، التي تحقق حرية الاختيار،

وتعترف بـ(الآخر)، ولا تُكره أحداً على اعتناق قيمها؛ ومحور مقاصدها إلحاق الرحمة بالعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فهي مؤهلة للقيام بهذا الدور للحضور الحضاري، أيضاً، على خارطة العالم كله اليوم، حيث تقدم نماذج ولو كانت قليلة تثير الاقتداء، حتى ولو كان الكثير من المسلمين اليوم هم منتج لغير حضارتهم، وقد لا يختلفون عن غيرهم إلا بالعناوين، أما المضامين فهي واحدة تقريباً.

ولعلنا نقول: إن من أبجديات التكامل الحضاري أو التعاون والتعايش والتنافع العمل على تحويل الوجهة من الصراع والمدافعة والقهر والهيمنة واعتماد القوة في فصل المنازعات إلى الحوار والتفاهم والتفاعل والتكامل والتداعي إلى الجلوس حول موائد مستديرة، بالمصطلحات الحديثة، أو إلى المصطلح القرآني: ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ (آل عمران:٦٤).

كما أن من أولويات وأبجديات هذه الوجهة بناء الفرد المتكامل مع نفسه وأهله ومجتمعه وأمته، وتشكيل الأمة المتكاملة المتضامنة المؤمنة بالتنافع والتعايش والقبول بـ(الآخر)، والاعتقاد أنه لا توجد أمة أو حضارة خلواً من المكاسب، اتسعت أو ضاقت، وامتلاك الكثير من المفقود عند الآخرين، ولذلك ندرك لماذا جعلت الحضارة الإسلامية السير في الأرض، والتوغل في التاريخ، والتعرف على حضارات الأمم يأتي بفقه وعبر ومعطيات لا تتوفر في التمحور حول (الذات)، حيث لا بد من النفرة لاستدراك ما فات واكتشاف المعارف والخبرات؛ ولقد نعى الوحي واستنكر على الذين لم يسيروا في الأرض ويستوعبوا الواقع،

ويطلعوا على الحضارات، السابقة والقائمة، ويعودوا برصيد المعرفة وأبجدية التعامل، أو فقه التعامل، وآليات التكامل، ويبصروا عوامل السقوط والنهوض الحضاري: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦)، فالتكامل والتفاعل هو في المحصلة النهائية أخذ وعطاء لخير البشرية.

وبعد:

فهذا الكتاب، يعتبر محاولة جادة، إلى حد بعيد، لفتح ملف التكامل الحضاري، لما لهذه القضية من الحضور والتفاعل والتداول اليوم في كثير من الندوات والمؤتمرات والمؤلفات والدراسات.

لقد برزت هذه القضية كأولوية، وأصبحت أفقاً على قدر من الأهمية بعد أن صار العالم إلى ما هو عليه من التواصل الاجتماعي والثقافي، الذي جاء ثمرة لطي المسافات وإزالة الحدود والسدود وسرعة تدفق المعلومات والتغطيات الإعلامية لكل جوانب الحياة وطرح قضاياها، بحيث كادت الأمم جميعاً تتقارب وتتبادل الخبرات والمعلومات والسفارات والمنتجات وكأنها اليوم أمة عالمية واحدة، أو قرية جغرافية وإعلامية واحدة؛ الأمر الذي جعل السوق الحضارية العالمية -إن صح التعبير- مكاناً متاحاً لتعرض كل أمة منتجات حضارتها، وتدلل على رسالتها العالمية، كما تدلل على مدى صلاحيتها ودورها

في عملية الإنقاذ الإنساني، في الوقت الذي تسعى معه الدول الأقوى إلى تحقيق الاغتصاب الحضاري والسياسي والاقتصادي، وفرض الهيمنة، وتعبيد الدول الأخرى، وامتصاص طاقاتها، وتهميش دورها، وتركها تعاني التخلف والحرمان، والاستئثار بالثروات والخيرات والسلطات، والنزوع إلى تمزيق رقعة المشترك الإنساني بإيقاظ نزعات التميز والعنصرية والاستكبار، وإعلاء شأن القوة، واعتمادها في غالب الأحيان لفرض السياسة والسيطرة.

وعلى الرغم من المحاولات الواهنة والخجولة، التي أعقبت الحروب العالمية، التي دمرت الإنسان والأرض والبنيان والبيئة، لإيجاد مؤسسات أممية دولية عالمية تشكل مجالات للقاء، ومحاولات للتشاور والتفاهم والحوار، وتجنيب العالم الكوارث والحد من التسلط والهيمنة، مثل منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية وجميع المنظمات التابعة لها، في معظم المجالات، إلا أنها على الرغم من أهمية هذا التوجه، ما يزال عطاؤها متواضعاً.

فهي في واقعها الحالي وتحكُّم الدول دائمة العضوية بالقرارات الكبرى وفق أطماعها ومصالحها، أشبه ببيت العنكبوت، الذي لا يلتقط إلا الحشرات الضعيفة، وتمزقه الحيوانات والهوام القوية، لكنها تبقى خطوة على طريق التعاون والتكامل تعوزها الفلسفة والثقافة الحضارية السليمة واستشعار المسؤولية.

وقد يكون السبيل الأكثر تمهيداً إلى بناء التكامل والتعاون والتعايش الحضاري بمجاله الأمم والشعوب وإقامة المؤسسات الأهلية والسفارات الشعبية، بعيداً عن الدول وصراعها على المصالح والهيمنة.

ولعل الإشكالية الكبرى، في مسألة التكامل الحضاري، تكمن – فيما نرى– في فلسفة الحضارة عند الأمم والشعوب، تلك الفلسفة التي تنتج برامجها وممارساتها، وتبدع وسائلها، وتطبع سلوكها، وتسوغ أفعالها.

فالحضارة التي تقوم فلسفتها على اعتماد القوة والعنصرية والتمييز والهيمنة والتسلط والتحيز والاستكبار والاصطفاء وصفاء الدماء وعدم الاعتراف بأية فضيلة لـ(الآخر)، غير مؤهلة للاضطلاع بهذا الدور الإنساني العظيم، وسواء في ذلك الفلسفة الماركسية، التي تؤمن بصراع الطبقات وتؤسس للصراعات في شتى المجالات، بين الفقراء والأغنياء، بين الرجل والمرأة، بين الأجيال، وبين الطبقات، والاعتقاد بأن التناقض هو سبيل التفاعل والنهوض، أو فلسفة الحضارة الرأسمالية في الصراع والتحدي، والاعتقاد أن البقاء للأقوى وليس للأصلح، وأن الحق للقوة وليس القوة للحق، وجعل ذلك ديدنها في جميع ممارساتها.

إذن المشكلة، كل المشكلة، في فلسفة الحضارة، وما لم تتم التنقية الحضارية، ويتم الارتقاء بفلسفة الحضارة، وترفعها عن العنصرية والتمييز والانحياز، والارتفاع إلى مستوى البعد الإنساني، واعتماد التحاور بدل المواجهة، وتحقيق تكافؤ الفرص بين الأمم والشعوب، والسعي لإيجاد الصيغ المشتركة لخير الإنسانية، والإفادة من القيم الحضارية، التي تحقق هذه المفاهيم فإن التسلط والهيمنة ستستمر، تحت رايات وألوان قد تتغير، لكن تبقى الحقيقة واحدة.

فلقد عرض الباحث لمقومات التكامل الحضاري بين الأمم والشعوب والحضارات، وحاول ما أمكنه السعي للتدليل على أهمية هذا التوجه في استنقاذ البشرية من شقوتها، كما عرض لمعوقات التكامل الحضاري والإصابات الحضارية، وبحث في أسبابها، وكيفية تجاوزها، إلى حد بعيد، ذلك أن التنوع والاختلاف سنة جارية في الحياة، بكل أبعادها ومجالاتها، وهي في الأمم والشعوب والحضارات كما هي في الأفراد، وأن هذا التنوع مصدر إثراء وغنى، وسبيل تعاون وتعايش وتنافع وتكامل، مع أهمية احتفاظ كل حضارة بذاتيتها وخصائصها وشخصيتها، الأمر الذي يغني التكامل، ويجعله ذا معنى، ولا يحولها إلى تابع ونسخة مكررة عن الحضارة الأخرى، وبذلك يلغيها ويعطل فاعليتها وعطاءها.

والأمل معقود أن يؤدي هذا التفاعل والتدافع الحضاري البطيء، الذي يشتد عوده يوماً بعد يوم، إلى حصحصة الحق، والتوجه صوب اختيار الأصلح لخير البشرية، والوصول بعد هذه الشقوة الإنسانية إلى عطاء حضارة النبوة، حضارة التوحيد، وتخليص الإنسان من تسلط الإنسان، ومساواة الجميع ووحدتهم كثمرة لتوحيد الله الواحد، خالق الجميع.

والله غالب على أمره.

تمهيد

ظهر في العقد الأخير من القرن الماضي من يعلن عن نهاية التاريخ بانتصار الرأسمالية على الشيوعية. وفي نفس الحقبة برز من يزعم بأن الصراع لم ينته بصورة عامة، لاسيما وأنه سيكون بين الحضارات، ليبشّر بمستقبل مليء بالمخاطر، الأمر الذي أدى إلى ردود أفعال متباينة، سواء على المستوى الفكري أو السياسي.

فبرزت دعوات متفائلة حول حوار الحضارات وتعارفها وتعايشها وتكاملها. وتكرر البحث فيها بصورة ملفتة وغير مسبوقة، وعُقد حولها العديد من المؤتمرات. ولكن لابد من الاعتراف بأن فكرة التكامل هي الأقل حضوراً في هذا الخصوص، ولذلك من المهم إثراء النقاش حولها، لاسيما وأنها تمثل واحداً من أكثر الموضوعات أهمية في الفكر السياسي المعاصر، مما يعطي للبحث فيها أهمية خاصة.

ومـن الواضـح أن اخـتلاف المفكـرين في تحديـد طبيعـة العلاقـة بـين الحضـارات، أدى إلى ظهـور اتجـاهين في هـذا الخصـوص، أحـدهما سـلبي تبـدو فيـه القطيعة والمواجهـة والصـدام بين الحضـارات، والآخـر إيجـابي يقـوم على إمكانيـة حـدوث التقـارب فيمـا بينهـا. وفي تقـديري أن الاتجـاه الثاني يمثل الحالة الأساسية والقاعدة الطبيعية، ولذلك تنطلق هذه الدراسة من هذا الافتراض.

وهـذا يعني إثارة عـدة تساؤلات نميّز من بينهـا خمسة بصورة أساس: الأول حـول الحضـارة، فمـا هـو مفهومهـا؟ وماهي المفـاهيم القريبـة منـه؟ والثاني حول مفهوم التكامل بين الحضارات، فما هي طبيعته؟ والثالث يدور حول مسوغاته، فما هي مبرراته؟ والرابع يرتبط بما يواجه هذا المفهوم من صعوبات، فما هي مثلاً الإشكاليات المرتبطة به؟ والأخير يتعلق بإمكانية تحقيقه، أي هل هناك ما يسمح بجعله حقيقة قائمة؟ وتحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات في عدة محاور رئيسة على التوالي.

أولاً: مفهوم الحضارة

لعل مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم إثارة للجدل، ويكفي أن نشير في هذا الخصوص إلى انشغال الكثير من المفكرين والفلاسفة به لأكثر من ثلاثة قرون، أي منذ القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا. ودون الدخول في هذا الجدل أحاول الاقتراب منه في سياق موضوع البحث، وذلك بالتعرض لبعض الجوانب، كتحديد معنى الحضارة، والكشف عن عناصرها الرئيسة، ومعرفة حركة الحضارة. فلنتابع هذه الجوانب بشيء من التفصيل.

أ- معنى اصطلاح الحضارة:

لابد من الاعتراف بداية أننا أمام مصطلح ليس من السهل الاتفاق حول معناه بشكل دقيق، ولعل هذا ما يفسر تعدد التعريفات الخاصة به[1]. ولأنه لا يعنينا هنا الخوض في هذا الأمر، فإنه يكفي أن نشير إلى موقف كل من الفكر العربي والفكر الغربي في هذا الخصوص، ثم نتعرض للحضارة كحالة بشكل عام وإلى الزوايا المرتبطة بها.

---

(١) انظر على سبيل المثال تعريفات الحضارة الواردة في:
Huntington, Samuel P. The Clash Of Civilization And The Remaking Of World Order, Simon E. Schuster, new York, 1996, pp41,42.

فالفكر العربي أخذ كلمة الحضارة من التحضر الناجم عن الإقامة في مكان ما وما ينجم عنه من تمدن، وبهذا المعنى تحدث ابن خلدون عن العمران المدني، كنقيض للبداوة، التي تشير إلى الارتحال والتنقل وعدم الاستقرار. الحضارة بهذا التحديد تبرز مع الاهتمام بالعمران وتشكيل المجتمع المديني المستقر المترابط والمتمدن(١).

وهو يرى أنها تركز بصورة أساسية على الدين؛ لأنه يتضمن الجانب الروحي الذي يكفل الالتزام الأخلاقي الذاتي، ويوفر الترابط بين الأفراد وتلاحمهم، وتحفيزهم على ضرورة الالتزام بالمبادئ، التي تساعدهم على تطوير حياتهم كالعدل والمساواة والتسامح والتعاون والرحمة، والابتعاد عن الجرائم، التي تهدد حياتهم كالغش والظلم والسرقة والقتل وغيرها(٢).

تضم الحضارة بهذا التحديد نوعين من البنى، إحداهما عمرانية والأخرى اجتماعية، وهي بهذا التحديد مزيج من جانبين، المدنية والثقافة، أي أنها ثمرة جهد ضخم لعمارة الأرض وفق ثقافة ما(٣). وتقدم الحضارة الإسلامية أنموذجاً بارزاً في هذا الخصوص، فقد أظهرت الاهتمام البالغ

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ط ٥ (بيروت: دار القلم، ١٩٨٤م) ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) انظر: سعيد محمد السقا، فلسفة الحضارة وحوار الحضارات (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٠م) ص٦٤-٦٣.

(٣) Leslie A. White ,The Evolution Of Culture, McGraw-Hill Book Company, New York, 1959, p3.

بالعمران، في إطار ثقافة هذّبت سلوك العرب أفراداً وجماعات، بعد أن كانوا أقرب إلى التوحش وأبعد عن الانقياد، فضلاً عن الاتصاف بالتحاسد والتنافس(١).

أما الفكر الغربي فقد عرف مدرستين تعبّر كل منهما بطريقتها الخاصة عن معنى الحضارة. الأولى تستخدم لفظ الحضارة Civilization بمعنى المدنية، بينما تلجأ الثانية إلى مصطلح الثقافة Culture. وما بين المدرستين طبعاً جدل طويل في هذا الخصوص(٢).

إذن هناك في الغرب من لا يرى في الحضارة الغربية سوى مظهرها التقني، باعتبارها نتاج جهد بشري تراكمي في هذا المجال. صحيح أنها ارتكزت بداية على قيم الديانة المسيحية إلا أنها ابتعدت عنها بعد التصاقها بالدولة(٣)، وأضحت مع مبالغتها في الاهتمام بالجانب المادي تعيش حالة من الفراغ الروحي.

وهناك أيضاً من لا يرى فيها سوى الجانب الثقافي، حيث لكل أمة أداء قيمي يعكس منهجها وسلوكها(٤). وبهذا المعنى تبرز في البناء الحضاري

---

(١) مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص١٥١، ١٧٢-١٧٤.

(٢) انظر:

F.S.C . Northrop, The Taming Of Nations, The McMillan Company, New York, 1952, p10

(٣) Ibid, p.118.

(٤) Huntington, op. cit., p.41.

للأمة السمات الأخلاقية على نحو يفوق أي شيء آخر، فتظهر الثقافة هويتها وطبيعة تأثيرها الحضاري في حياة الإنسان وبيئته، سلباً أو إيجاباً. وفي هذا السياق تم تناول موضوع الحضارة من جانب أكثر من مفكر[1].

والهوية الثقافية، كمضمون للبناء الحضاري، تبدو في كونها مظلة لثقافات متعددة، مما يعني أن تكون الحضارة هوية ثقافية واسعة لمجموعة معينة من الشعوب. ومع أهمية الثقافة وبروزها على هذا النحو تصبح مرادفة للحضارة. وعلى هذا الأساس ميّز «صاموئيل هنتنجتون Samuel Huntington» بين عدة حضارات في عالمنا المعاصر، وهي: الحضارة الغربية، الحضارة الإسلامية، والحضارة اليابانية، والحضارة الكونفوشيوسية، والحضارة الهندية، والحضارة السلافية، وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الأفريقية[2].

ولكن إذا اتسعت حدود الحضارة ونطاقها فإنها تصبح نسقاً واسعاً لا يرتبط بجنس معين، ولا ينتمي إلى شعب محدد. ورغم أنها، أي الحضارة، قد تنسب إلى أمة بعينها، فإنها تبتعد بها عن أي أساس عرقي. وبذلك تكون أكثر اتساعاً من الثقافة، التي هي في الغالب رمز الهوية ومحور الخصوصية.

---

(١) قارن مفيد الزيدي، صراع الحضارات وحوار الثقافات، نحن والآخر، ط١ (عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م) ص١٨.

(٢) Huntington, op. cit., pp.45-47.

إن مصطلح الحضارة يشير عموماً إلى حالة متقدمة لواحد أو أكثر من المجتمعات تتميز بمستوى متطور، ولذلك يلاحظ أن التعريفات المختلفة تلتقي حول كون الحضارة بناءً يضم إنجازات هائلة، تحققت لشعوب معينة أثناء انتقالها من الماضي إلى الحاضر عبر مراحل متتابعة من الجهد والعمل، مما يجعل هذا البناء متميزاً بخصائص تبدو بوضوح في مظاهر الحياة المختلفة.

فالبناء الحضاري، لأنه يقوم على مستوى رفيع لجوانب عديدة، نراه يرتبط بعناصر بنائية كالعلم والفن والدين والتكنولوجيا والأدوات المادية. وهذا أمر طبيعي إذ لا يمكن تشييد هذا البناء بدون هذه العناصر، حتى أن غياب أي منها سيؤثر سلباً في تحديد طبيعة الحضارة. فغياب التكنولوجيا المتطورة في العصور القديمة، مثلاً، كان يعني أن لا تكون هناك سوى حضارة زراعية.

ويمكن النظر إلى البناء الحضاري من عدة زوايا تبرز من بينها ثلاث بصورة رئيسة، يدور الأول حول العناصر البنائية للحضارة، ويتعلق الثاني بالهوية الثقافية، أما الثالث فإنه يرتبط بحدود الحضارة وشموليتها(١).

---

(١) علي ليلة، قضايا ومشكلات عالمية معاصرة (الكويت: الجامعة العربية المفتوحة، ٢٠٠٥م) ص٤، ٤٧.

ب- مرتكزات البناء الحضاري:

تتحقق الحضــارة بوجــود مرتكزات رئيســة، تكون بمثـابة الأعمــدة في البنـــاء الحضـاري، ولعل في مقدمتـــها القـــدرات الإنســـانية، والعقيـدة الدينيـــة، والتطـــور المديـــني، ومن المفيـــد التـعـــرف عـــلى هذه الجوانب ولو بصورة سريعة[1].

١- القدرات البشرية:

تعتمـــد الحضـارة بداية عـــلى دخـــول الإنســـان في مرحلة القـــدرة على تطـــوير إمكاناتـه العقـــلية في مختـــلف المجـالات، بحيـث تـبرز لديـه الملكات الإبداعية في الجوانـب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، الأمـر الـذي يمكّنـه مـن وضـع الأسـس والـنظم اللازمـة للسـلوك والفعـل الحضـــاري. وهـــو ما يميزه عن إنســـان المرحـــلة البدائية. فكانـت تحركاته تقـع ضـمن سـلوكيات الكائنـات الحيـة الأخـرى، الـتي تفتقـر إلى التنظـيم الاجتماعي والثقافي.

وفي هـــذا يرى مـــالك بن نبي أن الإنســـان هـــو العنـــصر الفاعـــل في وجـــود الحضارة، إذ أن له الـدور الأكـبر في هـذا المجال، ليس فقـط لأنـه الشـــرط الأســـاسي للفعـــل الحضـــاري، وإنما أيضـــاً لأنه هـــو الذي يحدد

(١) نفس المرجع، ص٤٨-٥٠.

قيمته الاجتماعية. وهذا يعني أن نشوء الحضارة وتطورها منوط به[1]، وهذا ما يجعل منها تعبيراً عن مراحل إنسانية تطورية متقدمة، توفر الخبرة، التي تساعد على الانتقال من إنجاز إلى آخر، وصولاً إلى الحالة المثالية.

٢- العقيدة الدينية:

إن الناس يحتاجون دائماً إلى بنية عقيدية قوية تكون محركاً قوياً لهم، يدفعهم للعمل بحماس وعلى نحو يجعلهم مستعدين ليس فقط لتحمل مشقة بناء الحضارة، وإنما أيضاً للعمل على المحافظة عليها وضمان بقائها واستمرارها، ومن هنا كانت أهمية الدين في حياة الأمم. وقد ازداد دور الدين مع بروز تأثير الثقافة الغربية على الثقافات المحلية في ظل العولمة، إذ أصبح المميز الرئيس للجماعات البشرية بعضها عن بعض[2].

---

(١) انظر: مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى، ط ٧ (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧م) ص٥٥ وما بعدها.

(٢) قارن

George M. Thomas, Religious Movements,World Civil Society, And Social Theory, In: http://www.iasc-culture.org/THR/archives/Rel&Globalization/4.2FThomas.pdf,pp55,56, and Culture and Globalization, in: http: //www.globalization101.org/uploads/File/Culture/cultall.pdf,p22.

ولذلك نجد أن غالبية الحضارات تستند إلى الدين، فالحضارة الهندية استندت إلى الديانة الهندوكية، كما استندت الحضارة الفرعونية إلى الديانة المصرية القديمة. وارتكزت الحضارة الصينية على العقيدة الكونفوشيوسية. واعتمدت الحضارة اليابانية على ديانة الشنتو، واعتمدت الحضارة الغربية على الديانة المسيحية، واستندت الحضارة العربية الإسلامية على الديانة الإسلامية.

٣- التطور المديني:

لا شك أن نشوء المدن مؤشر واضح على بلوغ إحدى مراحل تكوين البناء الحضاري، وهي نفسها تلعب دوراً مهماً في مسيرة التطور الحضاري، وذلك لتميزها بتقسيم متقدم للعمل وبتشكيل محدد للسلطة السياسية. كما تجمع بين المدن والدول علاقات عسكرية منظمة.

وفي المدينة يظهر بناء اجتماعي يفوق في تنظيمه البنى الاجتماعية في الريف، حيث توجد شبكة واسعة من المؤسسات المدنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبذلك تتوفر باستمرار في مجتمع المدينة فرص واسعة وكبيرة لتحقيق معدلات ثابتة للتنمية في مختلف الصعد. المدينة بهذا التحديد تكون قاعدة التطور الحضاري بالنسبة لأي أمة من الأمم.

ج- حركة الحضارة:

تناول أكثر من مؤرخ مسألة حركة الحضارة، ومن أشهرهم من الغرب «أرنولد توينبي Arnold Toynbee»، ومن العرب عبد الرحمن بن خلدون ومالك بن نبي. ومع أن هؤلاء المفكرين يتفقون حول فكرة مرور الحضارة في دورة معينة، إلا أن الأخير تجاوز سابقيه في بعض التفصيلات، ولذلك أكتفي بالإشارة هنا إلى تصوراته في هذا الخصوص.

يعتبر «مالك بن نبي» أن للحضارة دورة كاملة تتكون أساساً من ثلاث مراحل. في الأولى تكون النشأة بميلاد فكرة سامية، يتحمس لها مناصروها، وهم في أوج عطائهم الوجداني. وفي الثانية يكون إعمال العقل فتنمو العلوم ويزدهر الإنتاج المادي بالعمل والجد وتتحقق الوفرة. وفي الأخيرة تبرز نزعة الشهوة الجسدية والغرائز الطبيعية، فتدخل الأمة مرحلة الاستهلاك المحض لمنجزاتها الحضارية ويكون الهرم والعجز عن الإصلاح والنهوض[1].

والفكرة السامية هي عادةً فكرة دينية أو ما يشبهها، ويرى «ابن نبي» أن الحضارة تسير بالمجتمع، قوة وضعفاً، صعوداً وهبوطاً، تبعاً لدرجة تمحوره حول الأفكار، أو حول الأشياء المحيطة به، فدورة الحضارة تبدأ حينما تؤثر

---

(١) انظر: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٨٦م) ص٢٤ وما بعدها.

فكرة دينية أو بديلاتها في النفوس، وينتهي تأثيرها حين تفقد الروح هيمنتها على غرائز مكبوحة الجماح. وسقوط الحضارة في أرض معينة يعني انتقال شمسها إلى أرض أخرى[1].

ولا يتفق «ابن نبي» مع ابن خلدون في حتمية موت الحضارة، لأنه يرى أنها لا تموت وإنما تغط في سبات عميق، وأن استيقاظها من نومها وسيرها في طريق النهضة هو أمر ممكن لكنه رهين بشروط نفسية وزمنية معينة إذا توفرت وتكاملت انطلقت من جديد، وفي مقدمتها الالتزام بالفكرة الدينية بأسسها العقيدية والإيمانية، لما توفره للحضارة من قدرة على تجديد حركتها واستعادة كيانها[2]. وهي سواء في مرحلة ازدهارها، أو نهضتها، قد تتواصل مع غيرها في اتجاه التكامل الحضاري.

(١) نفس المرجع، ص ٢٣ وما بعدها.
(٢) نفس المرجع، ص٢٣-٢٤

ثانياً: مفهوم التكامل الحضاري

يشير مصطلح التكامل إلى مستوى معين من التفاعل بين جماعات متعددة، وذات خلفيات حضارية متباينة، ويفترض أن يبتعد بها عن الصراعات والحروب، ليرسّخ بدلاً من ذلك حالة السلام، الأمر الذي يمكّن تلك الجماعات من مواجهة ما يعترضها من مشكلاتها بكفاءة واقتدار، وتحقيق ما تصبو إليه من تطور وتقدم إنساني عام. التكامل بهذا التحديد عملية تطورية تراكمية تنهي مرحلة معينة من حياة الجماعات البشرية لتبدأ مرحلة أخرى مختلفة في ظل حالة من الاستقرار[1].

وقد برز الاهتمام بالتكامل بداية في مجال العلاقات الدولية، حيث عكف عدد من المفكرين على دراسته، فالاتحاديون يرون أن نهاية عملية التكامل تتمثل في نمو اتحاد فديرالي بين الدول المكونة له، و«أرنست هاس Ernst Haas»، مثلاً، رأى فيه عملية خلق تجمعات سياسية محددة بتعبيرات مؤسسية وسلوكية[2]. ونادى به «روجيه

---

(١) قارن

Walter mattli, The Logic Of Regional Integration, Cambridge university Press, Cambridge, 1999, p21.

(٢) انظر:

Ernst B. haas,The Study of Regional Integration, In: Leon N. Lindberg and Stuart A. Scheingold, Regional Integration, Harvard University Press,Cambridge, 1971, pp 6,7.

غارودي Roger Garaudy» انطلاقاً من نظرة الإنسان إلى الآخر على أنه جزء من ذاته، يكمل كل واحد منهما الآخر ويكشف له عما يعوزه[1].

ونحن هنا نتناول جانبين رئيسين: اصطلاح التكامل من جهة والخطوات، التي تؤدي إليه من جهة أخرى.

أ- دلالة اصطلاح التكامل:

لابد بداية من التذكير بأنه تترتب على التعدد الحضاري، وما يرتبط به من فوارق أساسية في طبيعة الحضارات، واختلافات في المفردات والمفاهيم الخاصة بمعظم جوانب الحياة، إن لم يكن بجميعها. ويظهر ذلك بوضوح بالإشارة إلى دلالة اصطلاح التكامل الدولي في الغرب وعند العرب على سبيل المثال.

لقد استخدم الغرب مصطلح التكامل الدولي بمعنى الاندماج «Integration»، في إطار الحضارة الواحدة، أي دخول عدة عناصر أو وحدات في بوتقة واحدة، بحيث تتراجع الخصائص المميزة لها دون أن تختفي كما يحدث في حالة الوحدة «Unity». وتقترب دلالة المصطلح الأول من هذا المعنى في الجانب السياسي مع بروز واحدة أو أكثر من القوى

(١) روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، ط٢ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٢م) ص ١٨٦.

السياسية، في سياق دور متميز تقوم به وفقاً لقدراتها وإمكاناتها، والاتحاد الأوروبي يقدم المثال على ذلك.

ولكن فيما يتعلق بالعلاقة بين الأمم جرى التركيز على الحوار بين الحضارات، كمدخل للقضاء على الخصوصيات الذاتية، و تشكيل ثقافة تطغى على غيرها من الثقافات الأخرى. وفي ضوء ذلك شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين حالة من التمدد الثقافي الغربي، ومحاولة التأثير في مواقع الثقافات الأخرى بحيث تبدو الثقافة الغربية وكأنها هي الوحيدة الحية والفاعلة[1].

أما العرب فلم يعرفوا هذا المصطلح في علاقاتهم مع بعضهم البعض، وكان الحديث يجري خلال القرن الماضي عن الوحدة العربية، ثم ما لبث أن تراجع لتحل محله تعبيرات تشير إلى درجة من التعاون مثل العمل العربي المشترك ووحدة الصف العرب يوماً شابه ذلك من المصطلحات، في إطار منظمة جامعة الدول العربية.

ثم طرح مصطلح التكامل الحضاري بشكل محدود للغاية، للإشارة إلى مستوى رفيع من التفاعل الإيجابي بين أكثر من حضارة واحدة، بحيث تقوم كل منها بدورها في تقدم البشرية دون أي إقصاء. وفي هذا

(١) محمد جلاء إدريس، العلاقات الحضارية، ط١ (دمشق: دار القلم، ٢٠١٠م) ص٤١، ٤٩، ٢٧٧.

السياق يمكن البحث في مجالات التفاهم أو التعاون دون أن يكون هناك مجال للحديث عن الصدام، إذ لا مجال للتفاعل السلبي، الذي يجد تعبيراته في الصراع[1].

وبهذا التحديد يكون لكل أمة، في سياق عملية البناء الحضاري العام، إضافاتها الخاصة بها. كما يكون لها بطبيعة الحال أداء قيمي يعكس منهجها وسلوكها. وفي هذا الجانب تبرز سمات الأمة على نحو يفوق أي شيء آخر، فتظهر هويتها، وطبيعة تأثيرها الحضاري في الحياة الإنسانية عموماً. ولذلك يرى العرب أن الهدف الحقيقي من وراء الحوار، على سبيل المثال، هو دفع الأمم والشعوب إلى احترام خصوصية كل واحدة منها والتمهيد لقبولها رغم الاختلاف معها.

ب- طرق التكامل:

إن التكامل وهو يدفع باتجاه التطوير التدريجي للمجتمعات البشرية، لابد أن يعتمد وسائل عقلانية، تبدو بوضوح من خلال ثلاث طرق أساسية متداخلة وهي: إقامة شبكة من الاتصالات، وتحقيق التكامل الوظيفي، وأخيراً التعاون السلمي بين الدول في قطاعات محددة. ومن المفيد الإشارة إلى هذه الطرق ولو بصورة سريعة.

---

(١) يوجد على شبكة الإنترنت، تحت عنوان: «تكامل الحضارات»، العديد من المقالات العربية، التي تتناول هذا الموضوع.

١- شبكة اتصالات:

بدأت أهمية الاتصالات تظهر منذ أوائل ثمانينيات القرن الماضي في مجال العلاقات الدولية، مع تزايد وتعقد قضايا ومشكلات يصعب حلها في ظل ما يسميه «john D. Haas» فجوة الاتصال، إذ يتطلب الأمر مهارات اتصال جديدة أو لم يسبق لها مثيل(١)، وبخاصة مع اهتمام الدولة بمسألة الرفاه الاقتصادي. والاتصال عملية تفاعلية تعني عموماً لقاء بين طرفين مختلفين لتحقيق أغراض معينة.

والاتصال يتم مع وجود موضوعات تسمح، سواء بين الأفراد أو الجماعات، بالكشف عما بينهم من مصالح مشتركة، ويؤدي إلى تبني توجهات تنطوي على درجة من التقارب. ومع تعدد الموضوعات وتنوعها تصبح شبكة الاتصالات أكثر كثافة، وتعيش الأطراف المعنية حالة من الاعتماد المتبادل(٢)، مما يعني أنه في ضوء ازدياد المكاسب المادية، التي يوفرها الاقتصاد الحر يتم تعزيز الروابط الودية والروح الجماعية، والاتجاه نحو التكتل.

ويربط «كارل دويتش Karl Doetsch» بين الاتصال والتكامل، بمعنى أن الأول قد يؤدي إلى الثاني، من منطلق أن الشعوب تنجز تكاملها كلما اتسعت المجالات أو الموضوعات، التي تصل فيما بينها. وتظهر

---

(١) انظر:
John D.Haas And Others,Teaching About The Future,Center For Teaching International Relations, Denver, Colorado, 1987, p77

(٢) Ibid., p105.

الحدود أو الفواصل في المناطق، التي تتقلص الكثافة السكانية فيها. وتبدو أهمية دراسات هذا المفكر في تناوله لمنطقة شمال الأطلسي. ورغم أنه تعرض للتكامل على المستوى المحلي في حالات عديدة، إلا أنه كان مقتنعاً بأن القوانين العامة، التي يمكن التوصل إليها يمكن أن تكون مفيدة للتكامل على المستوى الدولي[1].

٢- تعاون سلمي:

لقد جرى تقدير قيمة التعاون الدولي بعد أن ظهرت أهمية ومكانة المنظمات والمؤسسات الإقليمية والدولية على المسرح الدولي، وبخاصة في المجال الاقتصادي ومع الاستفادة من تقدم وسائل الاتصال وسهولة تبادل المعلومات، الأمر الذي أدى إلى خلق بيئة دولية مشتركة تقوم على التواصل والتقارب بين الشعوب والدول في عالم أصبح يوصف بالقرية العالمية. وهذا يعني أن التكامل يفترض وجود مستوى من العلاقات بين الدول، بحيث أنها لم تعد تضع في حسابها احتمال نشوب الحروب فيما بينها، وتتجه فعلاً نحو التقارب وتتحدث عن السلام[2].

---

(١) انظر:
James E, Dougherty And Robert L. Pfaltzgraff, Contending Theories of International Relations ,Second Edition, Harper&Row Publisher, New York,1981, pp 424-425

(٢) انظر:
Robert D. Kantor, Contemporary International, Politics,West Publishing Company., NewYork; 1986, p61.

مما سبق يمكن ملاحظة أنه ليس من السهل تحقيق التعاون، والأكثر من ذلك صعوبة استمراره في ظل وجود العديد من العوامل المعرقلة، كاستقلالية سلطة الدولة. ولذلك تبدو في هذا المجال أهمية حرص الأطراف المعنية على الكشف عن القواسم، التي ترتبط بالمصالح المشتركة فيما بينهم، غير أن من المؤكد أنه يجري في سياق التفاعل الودي.

ومما لا شك فيه أن التكامل يسمح بارتباط المجتمعات البشرية، بعضها البعض، وبخاصة في المجال الاقتصادي. وهو لذلك لابد أن يرتكز على الاعتماد المتبادل، الذي يدفع نحو تطور الاقتصاد الرأسمالي. وهذا ما دفع الغرب إلى خلق مؤسسات اقتصادية دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، وسوق دولية ذات تأثير مباشر على العلاقات الدولية.

لابد بداية أن نتذكر أن مفهوم «الاعتماد المتبادل» ليس حديثاً، فقد جرى تداوله كمفهوم نسبي في نطاق قدرات النظم السياسية، وذلك من منطلق أن قدرة الدول على التأثير في غيرها تتفاوت من دولة لأخرى. فالدول الأقوى نفوذاً تستطيع رسم خطوط سياستها الخارجية مع القليل من الاعتماد على الدول الأخرى. لذلك يمكن القول: إن هذا المفهوم يفترض وجود دول تمتلك قوة متقاربة ولها تأثير كبير على بعضها البعض[١].

---

(١) Ibid., p57.

وقد أخذ هذا المفهوم يشير، في الربع الأخير من القرن الماضي، إلى علاقات اقتصادية دولية متشابكة، تتميز بالتأثيرات المتبادلة بين الاقتصاديات القومية المرتبطة بنمو المبادلات وبتعددية الروابط بين الفاعلين في مختلف المناطق على المسرح الدولي. و من المفيد النظر إلى الاعتماد المتبادل من هذه الزاوية، لاسيما بعد أن بات واضحاً أن الاعتماد الاقتصادي بين الدول هو في تزايد مستمر.

٣- تكامل وظيفي:

ظهر تعبير التكامل الوظيفي، على يد المفكر البريطاني «ديفيد ميتراني David Mitrany»، عندما ربط بين السلام والوظيفية، فبيّن أنه ليس المهم بداية معرفة كيفية حفظ السلام بين الأمم، وإنما كيف يمكن خلق ترابط فعّال فيما بينها. واقترح نهجاً عملياً وظيفياً. والسلام مرغوب فيه للقيام بأعمال مشتركة أكثر من مجرد توقيع الاتفاقيات. وتضافر الجهود في مجال ما، هو مهم للغاية لتعزيز فكرة السلام، وهو يتحقق بالتدريج، مما يعني أن التقدم الاقتصادي والاجتماعي هو الشرط الأول للسلام، ولذلك اقترح خلق مؤسسات دولية للقيام بوظائف محددة(١).

---

(١) Mattli, op. cit., p21.

وتــم تطــوير الوظيفيــة، بحيــث أخــذ يجــري الحديــث عــن الوظيفية الجديدة، وهي تقوم على فكرة أن يتم التكامل بداية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيصبح المجال مفتوحاً لانتقال الولاءات من الدول القومية إلى منظمات إقليمية، وقد نصل إلى انصهار الدول الإقليمية في دولة اتحادية[1].

وتشــدد الوظيفيــة الجديــدة علــى دور مؤسســات المجتمــع المــدني ومجموعات المصالح في الدفع بمسار التكامل نظراً لما تجنيه من منافع، وحتى الدولة تصبح كما يرى «ليون ليندبرغ Leon N. Lindberg»، على قناعة بتحويل جزء من نشاطاتها إلى مركز جديد، والتخلي عن رغبتها في اتباع سياسات محددة في مجالات خارجية أو داخلية، وتفوض بخصوصها ذلك المركز[2].

---

(١) انظر: Ibid., p 23.

(٢) Dougherty, op. cit., p421.

ثالثاً: مبررات التكامل الحضاري

يأتي التفكير في التكامل بين الحضارات في فترة متميزة عن غيرها من العصور السابقة، فهي تشهد اليوم الكثير من التحولات الدولية في مختلف مجالات الحياة. ويثور الجدل فيها حول عدة جوانب، يمكن أن نلحظ من بينها ثلاثة بصورة رئيسة، أولها التعدد الحضاري الكبير، والثاني الأزمة الحضارية الراهنة، وأخيراً طبيعة المفاهيم الخاصة بالعلاقة بين الحضارات.. فما هي طبيعة هذه الجوانب؟ نحاول الإجابة عن هذا التساؤل بشيء من التفصيل.

أ- التعدد الحضاري وطبيعة المرحلة:

عرف التاريخ عبر عصوره الممتدة أكثر من حضارة واحدة، ولكن في نطاق محلي في الغالب، وذلك بفعل بدائية وسائل الاتصال، سواء من حيث المستوى أو من حيث الانتشار[1]، ونتذكر في هذا الخصوص الحضارة

(١) انظر: محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، ط١ (عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م) ١٣/١ وما بعدها.

الهندية، التي تقدم مثالاً بارزاً للحضارات المحلية، التي عرفتها منطقة شرق آسيا. وفي كل الأحوال عرفت الحضارات ظاهرة التعاقب.

وشهد تعاقب الحضارات، حيث استفادت حضارة ناشئة مما أنجزته حضارة أخرى تعيش حالة تراجع، إذ أنه من المعروف أن العلاقة بين الأولى والثانية تبدأ عموماً في مرحلة البناء، حيث تأخذ الأولى من الثانية ما تبني عليه، لاسيما وأن أية حضارة لا تبدأ من الصفر، وإنما من حيث انتهت إليه سابقتها(١). ولو لم يحدث ذلك لما تم التطور الحضاري. وفي هذا السياق تشكلت سلسلة متعاقبة من الحضارات، التي أخلت كل واحدة منها المجال لغيرها(٢)، مما يعني وجود درجة من التشابه بين العديد من الحضارات مع قدر كبير من الاختلاف.

أما المرحلة الراهنة فهي تعرف معطيات جديدة ومختلفة، ولها دلالاتها البارزة. وتجد تعبيراتها في ثلاثة أمور أساس، وهي الوجود الحضاري في الزمان، والتواصل واستحالة العزلة، وأخيراً تحدي ثقافة العولمة. ومن المفيد التعرف على هذه الجوانب ولو بصورة سريعة.

---

(١) قارن عبد الحليم رضا عبد العال، مستهل القرن الحادي العشرين، حضارات متداخلة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٨م) ص١٩.

(٢) حسن إبراهيم أحمد، صدام المصالح وحوار الحضارات، ط١ (دمشق: مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع، ٢٠٠٤م) ص٣٢.

١- الوجود الحضاري في الزمان:

لقد شهدت فترة ما بعد الحرب الثانية ظاهرة مميزة وهي بروز أيديولوجيتين مختلفتين: الليبرالية والشيوعية على خلفية الحضارتين الغربية والأرثوذكسية، كما يعتقد «فوكوياما Fukuyama». ولكل منهما إمكانات كبيرة، ما أتاح لهما قدرة واضحة على التقدم والتفوق. لكن الثانية أخذت تتراجع بعد عدة عقود، مع استمرار الأولى في التقدم، وبدا وكأنها تمثل أفضل صيغة للتطور الإنساني[١]، مقارنة ليس فقط بحضارة الحرفة الزراعية، وإنما أيضاً بحضارة المنتجات الصناعية[٢].

لكننا نعيش تحولات حقيقية كبرى من أهمها انتهاء انفراد الحضارة الغربية والدخول في عهد التعدد الحضاري، وهو تحول على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنه بدونه لا مجال للحديث عن التكامل. وهذا يمثل في الحقيقة أساساً للتفاؤل على المدى البعيد، ليس فقط بالنسبة للعالم الغربي، الذي لا يتعدى ٤ أو ٥% من سكان العالم[٣]،

(١) انظر:
Francis Fukuyama, The End Of History And The Last Man, The Free Press, New York. 1999, p39-51.

(٢) ألفن وهايدي توفلر، أشكال الصراعات المقبلة، حضارة المعلوماتية وما قبلها، تعريب صلاح عبد الله (دار النشر غير معروفة، د.ت) ص٣٦.

(٣) انظر: المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى (المغرب: مؤسسة عيون، د. ت) ص٥٠.

وإنمـــا أيضـاً بالنسبـــة للعـالم ككـل، لاسـيما وأن هـذا التحـول سـيقود إلى تفاعل حضاري سلمي.

ولأول مرة في التاريخ، تجتمع حضارات عديدة في فترة زمنية واحدة، ويكـون لبعضـها مـن الحضـور والتـأثير مـا يفـوق بكثـير مـا كـان لمثيلاتها في العصور القديمة. وقد أوردها «هنتنجتون Huntington» في سياق افترض أن العلاقة فيما بينها هي علاقات صراعية[1]. وأخذ يجري الحديث عن أشكال الصراعات المستقبلية.

غـير أن ردود أفعـــال أخــرى دفعت باتجـــاه تفعيل الحوار والتعايش بــين الحضـــارات، رغبـــة في إبعـــاد العـــالم عـــن مخـاطر الحـــرب والصـــدام، واسـتخدمت مفـردات علـى درجـة كبـيرة مـن الأهميـة كـالترابط والتواصـل والتعايش وغيرها. ففي ظل التواصل بين الأمـم والشعوب، ونتيجة للمصير المشترك بـين أبنائهـا، ولوجـود مشـكلات إنسـانية أخـذ يظهـر الإحسـاس بضرورة تكـاتف وتضـامن المجتمعـات البشـرية للتصـــدي لها والتغلـب عليهـا حفظاً لمستقبل البشرية[2]. وما عقد من مؤتمرات وندوات في هذه الخصوص يُظهر أهمية هذا الاتجاه.

---

(١) Huntington, op. cit., pp 45-46.

(٢) انظر: السقا، مرجع سابق، ص٥٤.

٢- عدم القدرة على الانعزال:

إن التفاعل الحضاري ضرورة إنسانية لابد منها، لتحقيق التقدم في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان نحو حياة أفضل، وأن يشيع في المجتمعات البشرية جو من الأمن والسلام، بخلاف العزلة الحضارية، التي تحول دون انسياب المعرفة بين الأمم، ومن ثم عدم بلوغ ما تنشده من تطور وتقدم. وهي لذلك، أي العزلة، تعبير عن الجهل وانعكاس للتخلف[1].

والعزلة الحضارية والانغلاق أمر غير ممكن مع التقدم الهائل في وسائل الاتصال، فلم يعد بإمكان أية أمة أن تتقوقع على نفسها وتبتعد عن الآخرين في ظل ضغوط القضايا المشتركة وتشابك العلاقات الإنسانية، ووجود تحديات لا يمكن لأي أمة، مهما بلغت من قدرة، أن تواجهها بمفردها.

والتطور الحضاري نتاج تواصل دائم، وتفاعل مستمر بين الأمم، مما يعني أنه كلما ازدادت فرص الالتقاء ازدادت فرص التفاعل والتطور. وبخلاف ذلك تكون نتيجة العزلة الحضارية التقهقر والاضمحلال الحضاري. لقد تحققت العزلة قديماً بسبب بدائية وسائل الاتصال، ولذلك يمكن القول: إنها باتت مستحيلة في ظل ثورة المواصلات والاتصالات.

---

(١) انظر: جمال محمد الزكي، أسس التفاعل الحضاري، أخذ يوم ٢٠/٧/٢٠١١، في:
http://www.alshareyah.org/index.php?action=show_tebian_subject&id=559

ولـذلك يمكـن القـول: إنـه رغـم اخـتلاف الحضـارات وتباينهـا، فـإن التـداخل لابـد أن يظـل قائمـاً فيمـا بينهـا بشـكل أو بـآخر. وقـد ظهـرت حضارات راسخة تركت أثراً فعّالاً في مجرى حياة الإنسان، كالحضارة الصينية والمصرية، ثم الفارسية والرومانيـة، ومـن بعـدهما الحضـارة العربيـة الإسـلامية. وكان التواصـل قائماً بين الحضـارات منذ فجر التاريخ وبالقدر، الذي كان يتيحه لها تطورها التكنولوجي[1].

لكن ما تم من غزو ثقافي في ظل العولمة دفع العديد من المجتمعات، في سياق المحافظة على ثقافتها، إلى العودة إلى كل ما يتعلق بماضيها وتراثها، والتحول إلى ما يشبه الكيانات المعزولة. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى بروز البعد القومي على حساب النظرة الكونية للعالم وما يرتبط بذلك من تأثير على الإبداع الحضاري الإنساني المعاصر.

ومع ذلك لا يزال التواصـل بين الحضـارات المختـلفة قـائماً بشكل أو بآخر. ورغم أنه يجري وفق معايير حددها الغرب بمكانته ودوره القيادي، إلا أنه تظل له، أي التواصل، أهميته ومقتضياته، التي تساعد على تحديد السمات الإيجابية المميزة لمسار التفاعل بين الحضارات المختلفة وتدفع به بعيداً عن التفاعل السلبي.

---

(١) توفلر، مرجع سابق، ص٣٢ وما بعدها.

٣- تحدي ثقافة العولمة:

تدعو العولمة إلى إيجاد ثقافة كونية تضم منظومة من القيم والمعايير الضابطة لمجتمعات العالم أجمع. بمعنى أن هدفها الرئيس هو بناء ثقافة شاملة تضم مجموعة ملزمة من القواعد الأخلاقية العالمية، تهتدي عموماً بالخبرة المتوفرة حول عدد من القضايا العالمية كالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وحقوق المرأة وغيرها.

إنها تقوم على «خلط» الثقافات لإحلال مفاهيم الثقافة والحضارة العلمانية الغربية الحديثة محل مفاهيم وثقافات الحضارات الأخرى في المجالات المختلفة. إن هذه العملية ما هي إلا عملية «تغريب Westernization» عامة، ينتقل من خلالها النمط الغربي إلى كافة شعوب العالم باعتباره النمط الأمثل[(١)].

وهي ترتكز على رموز تُشيعها، وتنشرها بكل وسائل الاتصال المعاصرة. ولا شك أن ذلك يعني ليس فقط غزواً فكرياً، تسود فيه الثقافة الغربية على الثقافات الأخرى، وإنما أيضاً إحداث شروخ في البنى الثقافية للشعوب المختلفة وتفكيكها، ومن ثم محاولة طمس معالمها، أو على الأقل إظهارها بمظهر العاجزة، التي لا تملك القدرة على الثبات والصمود.

---

(١) خالد حربي، العولمة بين الفكرين الإسلامي والغربي (الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٨م) ص٨٣ وما بعدها.

وبهذا تمثل العولمة في جانبها السلبي تحدياً غير مسبوق، لأنه ينطوي على اجتياح ثقافي عبر ثلاث خطوات متداخلة :تراجع الشعوب الصغيرة عن ثقافتها تحت ضغط الثقافة الغربية، وفقدانها تدريجياً لخصائصها الثقافية. ثم تشقق الثقافات الأخرى، فتبدو في صور باهتة، بينما تبرز الثقافة الغربية كثقافة عالمية راقية زاهية. وأخيراً قيام الروابط والجسور والأدوات التحليلية لإيجاد معايير قيمية عامة، حيث الثقافة الجديدة.

ب- الأزمة الحضارية الراهنة:

تعيش البشرية في أيامنا أزمة حضارية، وهي أزمة مزدوجة، بمعنى أنها تتعلق ليس فقط بالحضارة الغربية المتفوقة وإنما أيضاً بالحضارات الأخرى الأقل تطوراً. ولذلك فإنه من المفيد الإشارة إلى هذين الجانبين، لصلتهما المباشرة بموضوع الدراسة.

١- أزمة الحضارة الغربية:

من المعروف أن الحضارة الغربية تمر منذ عقود بأزمة حقيقية، فهي في الوقت الذي تبلغ فيه الذروة في الرفاهية المادية، فإنها تصل إلى مستويات دنيا في «اللامعنى» و«قيم السوق» و«تقديس الوسائل». وقد دخلت منذ الربع الأخير من القرن الماضي مرحلة حرجة، ومظاهر ذلك عديدة من بينها التمحور حول قيم التقنية، وفقدان القاسم المشترك بين الحضارات[1].

---

(١) انظر:

Northrop ,op. cit.,P214.

فقد تم التمحور حول قيم التقنية، وفقدان التوازن الضروري بين الأفكار والأشياء، جراء طغيان الثانية على الأولى، بما يعني دخول المجتمعات الغربية مرحلة انطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، لتعود بالإنسان إلى مستوى الحياة البدائية، وهي المرحلة الأخيرة من مراحل دورة الحضارة.

كما تم، في لحظة ما، فقدان القاسم المشترك بين الحضارات، وهو امتلاك الإجابات الحاسمة عن الغايات النهائية للإنسان. فالحضارة الغربية هي الوحيدة في التاريخ التي تجيب التساؤل عن معنى الحياة بـ «لا أعرف». وهي لهذا حضارة «اللامعنى»، كما أنها أسست فلسفة للوجود لا فلسفة للعمل. وبات التمحور اليوم حول قيم التقنية أكثر وضوحاً في ظل العولمة الجديدة وقيم السوق.

إن ما أصاب الحضارة الغربية يختلف عما حدث للحضارات الأخرى السابقة، على أساس أن حجم الخسائر الداخلية، الناجمة عن تمحور الأفكار حول الأشياء لحظة أفول الحضارة، هو أكبر من حجم الخسائر الناجمة عن تمحور الأشياء حول الأفكار في حينه. ولهذا تعتبر مشكلات الغرب جوهرية، بخلاف مشكلات الأمم الأخرى، التي وصفت بالطارئة، مما يعني وقوع الغرب وسط الحيرة وفقدان معنى الحياة. فالحضارة الغربية هي بذلك جسد قائم بلا روح. وليس هناك ما يمنع انتقال الحضارة من الغرب إلى الشرق، عندما تتوفر الشروط اللازمة لذلك وفق دورة الحضارة التي تحدث عنها ابن خلدون[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص١٧٠-١٧٢؛ ٢٩٠-٢٩٢.

٢- أزمة الحضارات الأخرى:

إذا تركنا جانباً الحضارتين اليابانية والصينية، اللتين استطاعتا النهوض والتطور من خلال الارتكاز على إمكانيات الأمتين اليابانية والصينية، نجد أن الحضارات الشرقية الأخرى تعاني من أزمات حقيقية. ولا يختلف الأمر بالنسبة لحضارة أمريكا اللاتينية والحضارة الأفريقية، ولذلك ليس غريباً ألا يرى فيها الغرب أي خطر.

غير أن الشعور الإسلامي بالتفاوت مع الغرب، في المجال التقني، وفي التطور المذهل في مجالات الاتصال وما يرتبط به من تغيّر متسارع في أنماط القيم والاتجاهات، قد وضع العالم الإسلامي المعاصر أمام تحد حقيقي، لابد أن يحدد بشكل دقيق ماهية الاحتكاك الحضاري في المستقبل.

فالحضارة الإسلامية تعاني، رغم تباشير الصحوة والنهوض، من أزمة حقيقية، حيث يتنازع المجتمعات الإسلامية اتجاهان بارزان، أحدهما تجسده قوى اجتماعية تؤمن بالاعتماد على المرجعية الحضارية، والآخر تجسده قوى اجتماعية أخرى ذات توجهات غربية[١].

فالاتجاه الأول، وهو اتجاه متنام، وبشكل خاص في المجتمعات العربية والقوقازية والتركية، يرفض القيم العلمانية والتوجهات الغربية عموماً، ويركّز

---

(١) عطية فتحي الويشي، حوار الحضارات، ط١ (الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ٢٠٠١م) ص١١٢ وما بعدها.

على الرؤى والطروحات ذات المرجعيات الإسلامية، حيث الحل الفصل في القضايا المصيرية الأكثر حساسية. وهو لذلك يتمسك بالتراث والتاريخ والحضارة، ويبدي مقاومة وتمنعاً إزاء قيم وأخلاقيات الحضارة الغربية.

بينما الاتجاه الثاني يبرز في القوى الاجتماعية المبهورة بالحداثة الغربية وترتكز عليها في بناء حاضرها وفي تطلعاتها المستقبلية، فإنه يقوم على تبني القيم الغربية، ويعتمد نهج الحداثة والتغريب، ودعاته يتلقفون كل ما هو غربي باعتباره المدخل الحقيقي للتطور والتقدم.

لقد كانت قوة الحضارة الإسلامية تكمن في المرجعية الدينية الثابتة والتمدد الجغرافي والانتشار السكاني. ولابد من التفكير في هذه الجوانب لتحقيق النهوض الحضاري. لكن علينا أن نتذكر أن الانقسام المجتمعي بين الاتجاهين السابقين يمثل تحد خطير لهذا الهدف. ولتجاوز ذلك لابد من التقاء أتباع هذين الاتجاهين حول ضرورة البحث عن صيغة مناسبة لوضع مشروع شامل.

غير أن التوافق داخل مجموعة الدول الإسلامية غير قائم، وليس من المتوقع أن يتحقق في المدى المنظور، لاسيما في ظل غياب الدولة المركزية القادرة على القيادة وتقديم الأنموذج. ونحن نتذكر فيما يتعلق بهذه المسألة حالنا عندما تجسد هذا الأنموذج في زمن الدولة الإسلامية، بدءاً بعهد الخلافة الراشدة مروراً بالدولة الأموية، والعباسية، والأندلسية وأخيراً العثمانية أيام ازدهارها.

ج- بناء أنموذج حضاري عالمي:

لاشك أن التكامل الحضاري يمثل في أيامنا هذه ضرورة إنسانية، ليس فقط بحكم الحاجة إلى التعايش السلمي بين الأمم والشعوب، وإنما أيضاً بفعل التواصل الهائل، الذي وفرته العولمة. غير أن الغاية منه هي بناء أنموذج حضاري، له من الخصائص ما يجعله يحمل بجدارة صفة العالمية. ولكن لابد أن يقوم التكامل على الندية، والتفاعل الإيجابي والطابع الإنساني. وهي عناصر متساوية في قيمة كل واحد منها ووزنه، ومتداخلة مع بعضها البعض كالأواني المستطرقة، يمهد كل منها للآخر. فما هي طبيعة هذه العناصر؟ نجيب عن هذا التساؤل من خلال التعرف على هذه العناصر.

١- الندية والتكافؤ:

إن التواصل بين الأمم لابد أن يقوم على الشراكة الحقيقية بينها، وينبغي أن لا ينطلق من إحساس إحداها بالتفوق والاستعلاء الحضاري وما يرتبط به من تمييز عنصري يغلّب روح الهيمنة الثقافية، إذ أن مثل هذا الإحساس لا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق أهداف التواصل وغاياته، فنكون أمام عمل لا طائل منه. وهذا يعني أن يكون التعامل متكافئاً، تتوفر فيه شروط المساواة والإرادة المشتركة، بحيث تتعدد مستوياته ليكون شاملاً، يدور مع مختلف الشرائح والفئات، سواء على المستوى الحكومي أو على مستوى

المؤسسات الأهلية والاجتماعية المعنية، وبذلك تتحقق المصالح المشتركة للأطراف المعنية[1].

ويترتب على الندية تحقيق التكافؤ، بمعنى أن يقف كل طرف إلى جانب الآخر، لا خلفه، بناءً على ما يملكه كل واحد من مكانة حضارية وليس بناءً ما بلغه من مستوى حضاري. فالمكانة تشير إلى الأهلية الحضارية وهي قاعدة كل فعل حضاري. ولا يمكن أن يتحقق الإنجاز الحضاري بدونها. وعليه، فإن التكافؤ يقاس بمقدار ما قدمته حضارة ما للأمم الأخرى من منجزات بالغة الأهمية، لما لها من إسهامات قيمة في تنمية وتطوير الوجود الإنساني وإمداده بالقيم الروحية[2].

لكن التكافؤ بالنسبة للعرب والمسلمين يعتمد على استعادة الوعي بالذات الحضارية، وبذل كل جهد ممكن لتحقيق النهوض الحضاري. ثم مواجهة إشكالية الاتجاهات الفكرية المتعددة من خلال إدراك طبيعة المرحلة الراهنة بكل متطلباتها. إن معرفة الذات هي المدخل الطبيعي لتقديم المعلومات عنها للآخر، وبدون ذلك لا يمكن أن يتحقق التكافؤ.

فالأنموذج الحضاري العالمي لابد أن يقوم على منظور جمعي، وليس منظور فردي النزعة، إنه لا يصدر من سلطة عليا وإنما من

---

(١) عمر عبيد حسنه، الحوار.. الذات والآخر، في:
http://library.islamweb.net/newlibrary/displayumma.php?lang=&BabId=13&ChapterId=13&BookId=299&CatId=201&startno=0

(٢) الويشي، مرجع سابق، ص٢٧٤.

الجميـــع علـى أسـاس ديمقراطيـة المشـاركة. فـالأمر يتعلـق بمـا تصـبو إليـه المجتمعـات البشـرية في ضـوء القاسـم المشـترك بـين تطلعاتـــها إلى تطـــوير حياتها نحو الأفضل[1].

٢- التفاعل الإيجابي:

ويقوم على تواصل ثقافي سلمي يرتبط بمعطيات الواقع، بمعنى أن يتم تقـدير دور ثقافـات الأمـم والشـعوب في الوصـول إلى صـيغة تسـاعد علـى تشكيل حضارة إنسانية. أي أن يجري التواصل في ظل الاحترام المتبادل لكل هوية ثقــافية وخصــائصها الذاتية وتصوراتها الفــكرية. غير أنه، التواصــل، لا يمكن أن يتحقق إلا بين أطراف تجمعها الرغبة المشتركة في تحقيق أهداف معلومة ومتفق عليها، فإذا غابت الرغبة فسيكون من العبث الحديث عن التفاعل الإيجابي؛ لأنه سيكون مفرغاً من دلالته الحقيقية، ومكرساً للهيمنة والغطرسة وفرض الأمر الواقع[2].

والتفاعل الإيجابي لابد أن يتم في سياق حوار موضوعي هادئ يجري الإعـــداد له وفق برامج متتالية، بحيث تكون بعيدة عن القضايا الخاصة للأمـم والشـعوب، سـواء أكانـت عقــائدية أم أخلاقيـة أم غــير ذلـك؛ لأن إثارة مثل هـذه القضايا إمـا أن تؤدي إلى وقـف الحـوار لمـا تنطوي عليه من

---

(١) غارودي، مرجع سابق، ص٩-١٠

(٢) انظر: حسنه، مرجع سابق.

مواقف متناقضة، أو أن لا يسفر عن شيء لعدم فاعليته، فهو يكون أقرب إلى حوار الطرشان.

٣- الإنسانية والشمول:

إن الطابع الإنساني هو الذي يعطي للإنجاز الحضاري صفة الشمول، لأنه يكون نتيجة تكامل إبداعات كافة الشعوب في جميع أنحاء الأرض، وتلاقح أفكارها، ونتاج تبادل ثمرات معارفها وخبراتها وإنجازاتها العلمية. وبذلك تكون الحضارة إنسانية بمعنى أنها ليست ملكاً لأمة دون غيرها، وإنما تعود لكل البشر على اختلاف انتماءاتهم وأجناسهم، الأمر الذي يحول دون نشوب النزاع بين شعب وآخر، أو أمة وأخرى، حول قضايا معينة، أو مصالح محددة.

ولكي تكون الحضارة شاملة فعلاً لابد أن تقوم النخب السياسية والفكرية في العالم بمسؤوليتها ودورها في كسر الحواجز، التي تحول دون قيام توافق دولي إنساني عادل. والدفع باتجاه منع حدوث تصدعات سياسية، أو انهيارات ثقافية، الأمر الذي يعني إقرار سلام سياسي حقيقي يتعايش في ظله كل البشر تحت مظلة القانون الدولي.

رابعاً: إشكاليات التكامل الحضاري

تظهر حول تكامل الحضارات إشكاليات عديدة، بعضها خارجي يتعلق بالتحول في وظيفة الدولة على مستوى الفعل الحضاري، وبعضها الآخر داخلي يدور حول العلاقات بين الحضارات، سواء من حيث نظرتها إلى بعضها البعض، أو من حيث غياب الثقة فيما بينها، أو من حيث الفجوة، التي يحدثها ذلك. ومن الطبيعي أن تكون هذه الإشكاليات موضع اهتمام المعنيين بهذا الموضوع، ونحن هنا نرى أنه لابد من التعرض لها بشكل أو بآخر. لذلك نتناولها في أربع نقاط:

تتعلق **الأولى** بتأثير التحول في وظيفة الدولة، على مستوى تشكيل الحضارة؛

وتتعلق **الثانية** بالتمايز الحضاري؛

أما **الثالثة** فتتعلق بالثقة بين الحضارات؛

وتتعلق **الأخيرة** بالفجوة فيما بين الحضارات.

فلنتابع هذه الإشكاليات بشيء من التفصيل.

أ- التحول في الوظيفة الحضارية للدولة:

إن متابعة نشاطات الدولة عبر العصور المختلفة تظهر أنها لم تسر على وتيرة واحدة فيما يتعلق بوظيفتها الحضارية، وأن هناك تغيراً واضحاً أو تحولاً كبيراً في الاتجاه العام لحركتها، وتأثيره على دور الأمة في هذا المجال. ولمعرفة ذلك لابد من توضيح عدة أمور، أولها الوظيفة الأساسية للأمة، والثاني ظهور الدولة كرافعة للفعل الحضاري عبر تطور الأمم، وأخيراً تراجع الدولة عن دورها الحضاري.

١- طبيعة الأمة والدولة في الفعل الحضاري:

ترتبط الوظيفة الحضارية عموماً بالدولة، لكن من يقوم بها بداية هو الأمة، ثم تشاركها فيها الدولة في فترة معينة. وما يبدو مهمّاً هو ألا يحدث تناقض بين الطرفين، وإذا تم ذلك فعلاً فسيكون على حساب التطور الحضاري نفسه. ومن المفيد التعرف على هذين الجانبين بصورة تفصيلية.

الجانب الأول: الأمة كمبدع للحضارة:

لابد من التأكيد أن الفعل الحضاري هو الوظيفة الأساسية للأمة، صحيح أن دورها يبرز في العديد من المجالات، لكنه أكثر ما يكون وضوحاً في الانتقال من البداوة إلى العمران والمدنية، من منطلق أن تحقيق ذلك هو مسؤوليتها الأساسية. وهي بهذا التحديد الفيصل في أعمال العمران، إنها تمثل دائماً الإرادة، التي تقع عليها عملية إنجاز المهمة الكبرى. فهي تنشئ

المؤسسات العلمية والتربوية، التي يبرز فيها المفكرون، وتحتضن العلماء ليقوموا بدورهم التاريخي ويتحملون مسؤوليتهم الحضارية. إن فاعلية الأمة تبدو في مراحل معينة، ولولا قوتها الذاتية فإن الدولة لن تتمكن من فعل شيء في هذا الخصوص(١).

وإذا عدنا إلى المسارات الحضارية الطويلة، التي قطعتها الأمم، فإننا نرصد جهوداً نوعية ومفصلية، بلورت صورة الإنجازات العظيمة، وقد تحددت عبر تراكم اللحظات المضيئة في حياتها، ومن مجموعها تشكلت الحالة الكلية للحضارة. ويكفي أن نشير هنا وبصورة سريعة إلى الحضارتين العربية الإسلامية والأوروبية الغربية.

ففي الحضارة الإسلامية نلمس التراكم الكبير في مسارات متعددة، فإلى جانب التراكم العلمي المعرفي، نرى التراكم السياسي والعسكري، وهكذا. والمتتبع للمسار الأول من فترة الوحي إلى فترة جمع القرآن، وصولاً إلى مصحف سيدنا عثمان، رضي الله عنه، إلى فترة اعتماد اللغة العربية كلغة رسمية، ثم جمع الحديث وعلومه وتقنين الفقه وأصوله، ثم فترة الترجمة، وصولاً إلى فترة تبني المنهج العلمي، يلحظ دور الأمة في تحقيق درجة رفيعة من التقدم والازدهار.

---

(١) محفوظ محمد، جدلية الأمة والدولة في الفكر الإسلامي المعاصر، أخذ يوم ٢٠/٧/٢٠١١م، في:

http://www.balagh.com/mosoa/fckr/lf0rddvw.htm.

ولا يختلف الأمر فيما يتعلق بالحضارة الغربية، فقد ظلت المعارف العلمية تتراكم منذ زمن بعيد، حيث حدث تغيّر كيّفي باكتشاف المنهج العلمي بفضل مفكرين مثل «ديكارت Descartes» و«بيكون Bacon» و«سبينوزا Spinoza» في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وظهور العلوم الطبيعية الحديثة. ولم تكن السيطرة على الطبيعة، التي وفرتها تلك العلوم متاحة للمجتمعات كافة، فقد تم ابتكارها عند نقطة تاريخية معينة بفضل بعض الأوروبيين، غير أن المنهج العلمي أصبح بعد فترة شائعاً بين الناس، وفي متناول الجميع بغض النظر عن اختلاف القوميات والثقافات[١].

الجانب الثاني: الدولة كأحد مظاهر التطور الحضاري:

إن المتتبع لنشأة الدولة سيلاحظ أن ظهورها هو في الغالب تعبير عن لحظة مهمة في حياة الأمة. بمعنى أنه عندما أصاب الأخيرة التطور وجدت نفسها تتشكل في دولة. ويربط بعض المفكرين مثل «كوردن تشايلد Gordon Childe» و«كارل فيتفوكل Karl wittfogel» نشوء الدولة بالأنشطة الزراعية لدى المجتمعات البشرية وإدارة أنظمة الري. وفي بلاد الشرق القديم، على سبيل المثال، كان لنشأة المراكز الحضارية وارتباطها بشبكة من الطرق أثره البالغ في نشوء الدول[٢].

---

(١) Fukuyama, op. cit., p.72-73

(٢) انظر إبراهيم خليل العلاف، الدولة في الفكر الغربي الحديث: رؤية تاريخية، الحوار المتمدن، العدد ٢٢٠٥، ٢٨/٢/٢٠٠٨م، في:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=126057

وبذلك يمكن تحديد طبيعة الدولة باعتبارها تعبيراً عن تجليات حضارية معينة في المكان والزمان، لتكون إطاراً حاضناً لحضارة الأمة. وفي السياق نفسه تصبح مهمتها، وفقاً لأفكار «أرسطو Aristotle» ومن بعده «جون لوك John Locke»، توفير حياة طبيعية للمواطنين تمكنهم من صيانة منجزاتهم. فقد أكد الأخير أنه لابد من إقامة جهاز عام للحكم حتى يمكن التمتع بالحقوق الأساسية، كحق الحياة وحق الحرية. ويبدو أن هذا التصور أصبح يمثل اتجاهاً حديثاً عاماً. أشار إلى ذلك «هارولد لاسكي Harold Lasky» عندما لاحظ أن هناك إقراراً عاماً بين الفلاسفة، باستثناء الفوضويين، بضرورة وجود جهاز عام في المجتمع يحدد شروط تطور الحياة وضوابطها. أما «توماس هوبز Thomas Hobbes» فقد رأى أنه لن تستمر أية حضارة ما لم تعط ضمانات كافية من جانب الدولة[1].

٢- الدولة كرافعة للفعل الحضاري:

إن دور الدولة في التجربة الحضارية هو دفع حركة الأمة والتفاعل مع معطياتها ومتطلباتها حتى تبلغ غاياتها، وهو دور لا يمكن إنكاره. فهي، أي الدولة، بهذا التحديد ضرورة حضارية لاسيما وأنها الأداة الوحيدة، التي يمكنها تفجير طاقات الإنسان، والارتفاع به على الصعيد الحضاري. ولكنها

(١) انظر:
Karlovsky, C. Lamberg .The Rise And Fall Of Civilization, Cummig Publishing Company, Menlo park,California,p36FF.

لا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا ظلت حركتها منسجمة مع خيارات الأمة. ولا ريب أن فعالية الأمة وحركية المجتمع هي من العوامل الجوهرية والضرورية، التي تحول دون ابتعاد الدولة عن وظيفتها الحضارية. إن تكامل إرادتي الطرفين يعني أن ملحمة البناء الحضاري قد بدأت بالانطلاق فعلاً. وأن بلوغها مداها يتم تماماً إذا ظل هذا التكامل قائماً. ولقد كانت كل الحقب المزدهرة في التاريخ الإنساني ثمرة تكامل هاتين الإرادتين. والإشارة إلى الحضارتين الإسلامية والأوروبية الغربية توضح ذلك(١).

لقد رعت الدولة الإسلامية منذ نشوئها عملية التطور الحضاري، وبلغت ذروتها في العهد العباسي وبخاصة أيام هارون الرشيد وابنه المأمون، وكان حب العرب للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء في بغداد سبيلاً لاجتذاب أشهر العلماء إلا سلكوه. وترجموا كتب اليونان، واستفادوا من خزائن العلوم في بلاد فارس، واعتمدوا على التجربة والترصد في البحث. ولم يقتصر شأنهم على الارتقاء بالعلوم بما اكتشفوه، بل تعدى ذلك إلى نشرها بما ألفوه من كتب وما أقاموه من جامعات. وبدت دولتهم أكثر دول الأرض هيبة ومدنية(٢).

---

(١) ibid., p. 37.

(٢) انظر: غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط٢ (نابلس: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥م) ص٢١٤-٢٢٠و٥٢٥ وما بعدها

وبرزت عظمة الحضارة العربية الإسلامية في بغداد، حيث أضحت من أشهر المراكز العلمية، العالمية يقول «غوستاف لوبون Gustave Le Bon»: «وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد فيجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا، وكان المأمون بن هارون الرشيد يعد العلماء أناساً اختارهم الله لتنوير البصائر وإضاءة العالم..» [1].

أما الدولة الأوروبية فأخذت منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر تقوم بجهود بارزة لدفع عملية التطور، بحيث أضحت توصف بالدولة الناهضة. لقد اعتمدت عليها عملية انطلاق الأمة، عن طريق تنمية مواردها الاقتصادية، وإحداث ثورة في أساليب الإنتاج والتوزيع وإنشاء الصناعات الثقيلة، والنهوض بالزراعة والتجارة ووسائل النقل والمواصلات[2].

كما اعتمد عليها تطور المسار العلمي، حيث أُنشئت أولى المؤسسات العلمية الكبرى مثل الجمعية الملكية في إنكلترا وأكاديمية العلوم الملكية في فرنسا. هذا إلى جانب الاهتمام بالتقنيات المختلفة ووضع القوانين الخاصة بها وتسهيل استيرادها من الخارج مع مراقبة سير العمل في المهن المختلفة، بعد أن كان هذا الأمر يتم بصورة فردية بما في ذلك العمل في المناجم.

---

(١) نفس المرجع، ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) محمد عجمية، مقدمة في التنمية والتخطيط (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٣م) ص٦٧.

وأصبح التطور التقني شأناً من شؤون الدولة بعد أن أظهرت اهتماماً واضحاً بتأهيل الجهاز التقني[1].

لقد كان نفوذ الدولة كبيراً وبخاصة في الميدان الاقتصادي، حيث قامت بوضع أنظمة الحماية الجمركية وحظر الاستيراد. وبهذه الطريقة كان يتم تسهيل الاستثمارات في الميادين الكبرى. ومع ازدياد المتطلبات العسكرية، لاسيما خلال الحرب العالمية الثانية؛ أخذت تظهر بشكل أكثر ما يكون وضوحاً في السياسة المركزية للتقنية. وفي البلدان الأكثر تقدماً في أوروبا أصبح تحرك الدولة لا يتعلق بانتقال التكنولوجيا من بلد إلى آخر بقدر ما يرتبط بالتجديد والإبداع[2].

٣- تراجع الوظيفة الحضارية للدولة:

لم تعد الدولة بصورة عامة قادرة على احتضان الفعل الحضاري بعد أن طرأ على طبيعتها تغيّر كبير. ويرى «برنارد لويس Bernard Lewis» أن هذا الأمر حدث في القرن الثامن بالنسبة للدولة الإسلامية، عندما انتهى عملياً الاتحاد أو التلاحم بين المجتمع الإسلامي ودولته، فقد تراجعت بالفعل عن وظيفتها الحضارية[3].

---

(١) برتران جيل، موسوعة تاريخ التكنولوجيا، ترجمة هيثم اللمع، ط١ (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م) ص٩٥١-٩٥٣؛ ١٠٧٣-١٠٧٨.

(٢) نفس المرجع، ص ١٠٧٧ وما بعدها.

(٣) انظر: برنارد لويس، لغة السياسة في الإسلام، ترجمة إبراهيم شتا، ط١ (بيروت: دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، ١٩٩٣م) ص ١٢٩.

وأصبح وضع الدولة عاماً في التاريخ المعاصر، تدلل على ذلك المصطلحات العديدة، التي أخذت تظهر في أكثر من مكان، من ذلك مثلاً مصطلح «الدولة الرخوة»، الذي طرحه عالم الاقتصاد السويدي الشهير «جونار ميردال Gunnar Myrdal». وقد أكد أن أهم سماتها عدم الالتزام بالقوانين. أي أنها تصدر القوانين ولا تطبقها، ليس فقط لما فيها من ثغرات، ولكن لأنه لا يوجد فيها من يحترم القانون، فالكبار لا يبالون به؛ لأن لديهم من المال والسلطة ما يحميهم منه، والصغار يتلقون الرشاوى لغض الطرف عن القانون واللوائح والروتين. وفي هذه الدولة يباع كل شيء، بدءًا من الأعضاء البشرية كقطع غيار آدمية إلى الرخص والتصاريح وأحكام القضاء، فرخاوة الدولة تشجع على الفساد، وانتشاره يزيد من رخاوتها[1].

وفي أيامنا هذه أصبحنا نسمع عن «الدولة المتفرجة». لقد مرت الدولة عبر تاريخها بأدوار الحماية والحراسة والتدخل والرعاية ولم يخطر على بال أحد أن ينتهي ببعضها الأمر إلى التنصل من مسؤولياتها كدولة رعاية، خاصةً وأن شعبها يعيش حالة من التخلف، حيث شح المال وقِلة الادخار والديون، ومن ثم فإن حظ مشروعاتها التنموية عادةً ما يكون قليلاً. وفي مثل هذه الدولة لا يمكن أن تتحقق التنمية والنهوض الحضاري.

---

(١) انظر:

Huntington, op. cit.,p35.

إن تراجع الدولة عن كونها قوة رائدة في التنظيم الاجتماعي والتطور الحضاري يعود إلى عوامل عديدة. ويظهر ذلك بوضوح في أكثر من جانب واحد، منها أن تصبح هذه المؤسسة الكبرى تجسيداً لمصالح معينة، أو أن يحدث تحول واضح في وظيفتها الأساسية.

- الدولة كتجسيد لمصالح معينة:

فالكثير من الدول يتبنى في أيامنا هذه سياسات تقوم أحياناً على مصالح ضيقة. ومع أنها تتحدث باسم السيادة الوطنية والمصالح القومية، إلا أنها في حقيقة الأمر تعبّر عن مصالح الفئة الحاكمة، وتؤكد قدرتها على الحركة باعتبارها قوة دافعة حاسمة في العلاقات الدولية دون اعتبار لمقتضيات التطور الحضاري، مما يشير في حقيقة الأمر إلى وجود أزمة من نوع ما بين الدولة والأمة، وهي تتمثل في التناقض القائم بين الطرفين. إن الأزمة الكبرى تبرز عندما تعمل الدولة، بآلياتها العسكرية والحربية وجبروتها وطغيانها السياسي، على تقليص أو ربما إلغاء دور الأمة تحت مبررات داخلية أو خارجية. وهذا لا يعني مجرد عزل الأمة عن وظيفتها الحضارية ومقتضياتها، وإنما إضعافها أيضاً[1].

إن الكثير من الإخفاقات والنكسات، التي أصابت التجربة الحضارية الإسلامية هي من جراء الانفصال، الذي بدأ يشق طريقه بين الدولة والأمة،

---

(١) قارن محمد، مرجع سابق.

في مراحل مبكرة من التاريخ الإسلامي. ولولا جهود مؤسسات الأمة ومراكزها العلمية، لما استمرت الحضارة العربية الإسلامية بالإشعاع لفترات زمنية طويلة؛ وذلك لأن انحراف الدولة المبكر جعلها بعيدة عن جوهر وظيفتها[1].

وقد ظل التاريخ الإسلامي في الكثير من مراحله عبارة عن مد وجزر بين الأمة والدولة، فالكثير من الأمجاد صنعتها الأمة بمؤسساتها المختلفة. كما أن الكثير من الإخفاقات والانكسارات كانت من جراء طغيان الدولة. لقد ضربت الدولة العباسية في فترات انحطاطها بيد من حديد كل مشروع علمي أو ثقافي أو اقتصادي كان يجري بعيداً عن سياساتها[2].

- الدولة في ظل العولمة:

شهد المسرح الدولي في القرن الماضي انتشار عدد من اللاعبين كالشركات متعددة الجنسية والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية وغيرها، وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب الدولة القومية. ولذلك أخذ يتكرر الحديث والجدل، منذ أواخر هذا القرن، حول

---

(١) نفس المرجع.

(٢) نفس المرجع.

التحـــولات الكبرى، التي ارتبطت بظاهرة العولمة، وأكثرها بروزاً ما أصاب الدولـــة ليس فقـط مـن حيـث وظيفتـــها وإنمـــا أيضـاً مـن حيـث مـــــدى ضـــرورة استمرارها ووجودها، لاسيما أنها دخلت منذ نهاية الحرب الباردة مرحلة الأزمة(١).

لقد بات العالم يقف أمام عتبة تاريخية يمكن أن تجعل من تجاوز الدولة أمراً ممكناً بعدما أصاب وظائفها من تغيّر. هذا القول ينطبق ليس فقط على بعض الدول المتقدمة وإنـــما أيضاً على غالبية الدول المتخـــلفة والناميـــة، إنـه يشـمل كافـة الـدول بشـكل عـام(٢). ودور الدولـة الصـينية والهنديـة في النهوض والتطور هما من بين الاستثناءات على هذه القاعدة.

ففـي أوروبـا وأمريكـا، حيـث بلـغ هـذا التطـور ذروتـه على المستويات كلهـا، تحولـت الدولة القوميـة الأوروبيـة إلى أداة هائلة للإكراه والامتيـازات، بعد أن استقلت بنفسها عن المجتمع، الذي أوجدها. لقد ظلت فاعلة لفترة طويلة من الزمن؛ لأنها كانت تتحرك في المسرح الدولي وفق تصوراتها الخاصة، لكنهـا أخـذت تفقـد مصداقيتها. والأكثر من ذلـك هـو أنها تواجـه أزمـات

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول تأثير العولمة على الدولة انظر:
Drucker, Peter: The Global Economy And The Nation State, Foreign Affairs, Sep/Oct. 1997, vol.76, issue5, 159.

(٢) محمود حيدر، الدولة المستباحة من نهاية التاريخ إلى بداية الجغرافيا، ط١ (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٤م) ص٩٨وما بعدها.

شتى وتحديات عدة تفت في عضدها. لقد أخذت أركانها تهتز بشدة جراء انتشار اللاعبين الجدد، الذين يفلتون من سيادتها، إن لم يكن بقوة القانون فبحكم الواقع.

وفي العالم الثالث تجد المجتمعات نفسها من ناحية مستغرقة مجدداً في دوامة التمزق والتفتيت والحروب المحلية، وحائرة من ناحية أخرى فيما يتعلق بمستقبلها بين منهجين متناقضين: التكيّف مع الغرب أو الابتكار الذاتي. والتوفيق بين المنهجين لا يخلو من المخاطر؛ لأنهما يرتبطان باستراتيجيتين مختلفتين: فالاستيراد غير المرشّد يعني أن يصبح التجديد شعاراً للنزاع وتوجيه الاتهامات أكثر من كونه أداة للابتكار. والدعوة الإحيائية هي عموماً دعوة تعبوية ومنبرية لا تتضمن صياغات حقيقية بناءة لخطط وبرامج محددة.

ولكن رغم حقيقة التراجع العام للدولة، إلا أنه ليس واحداً بالنسبة إلى كافة الدول، فلا نستطيع أن نساوي في هذا المجال بين دولة من المجموعة الحضارية الغربية كإيطاليا، ودولة من المجموعة الحضارية الإسلامية كاليمن. ويجد ذلك انعكاساته بطبيعة الحال في تباين المستويات بين الحضارات وما يرتبط به من تداعيات، من بينها التمايز الحضاري.

ب- التمايز الحضاري:

وهو إحساس أبناء شعب أو أمة ما بالاختلاف عن (الغير)، ويعبّر عنه عادة بـ«الأنا»، وذلك للتعبير عن الخصوصية الذاتية مقارنة بـ«الآخر». وقد يبدو في مرحلة ما انعكاساً لمستوى معين من الانجاز الحضاري. ومن الضروري والحالة هذه تناول ثلاثة جوانب في هذا الخصوص: الخصوصية الذاتية، والتباين في المستوى الحضاري، وأخيراً التفوق الحضاري.

١- الخصوصية الذاتية:

ويقصد بها تلك الصفة، التي تميّز حضارة ما عن غيرها من الحضارات الأخرى، التي تلتقي معها في الزمان وتختلف عنها في أمور عديدة كخصائص الشعب وطبيعة المكان، وعلى نحو يسمح بالحديث عن التنوع الحضاري. فوجود حضارات متنوعة، يعني أن لكل منها سمات ذاتية تعبّر عن خصوصيتها. فمن المعروف أن الحضارة تنفرد بثقافتها وتاريخها وتقاليدها ومعتقداتها الدينية وفي أشكال التطور المختلفة، وعلى نحو يسمح بملاحظة وجود فوارق أساسية وحقيقية تقع ضمن الخصوصية الحضارية.

وتشير دراسة التاريخ الإنساني إلى أن لكل واحدة من الحضارات، التي ظهرت في العصور المختلفة دوراً خاصاً، كان عليها أن تؤديه في ظل

الأوضاع العالمية والإنسانية، التي كانت سائدة في حينه، ثم تجد نفسها مضطرة للتراجع لتأتي بعد ذلك حضارة أخرى تسير في الطريق نفسه[1]. والأمثلة على ذلك عديدة في مختلف العصور.

ففي العصور القديمة، على سبيل المثال، بدت خصوصية الحضارة المصرية في قدرة المصريين على التعبير عن واقعهم. وبدا ذلك واضحاً في الكم الهائل من المعابد والمقابر والأهرامات وغير ذلك. وبدت خصوصية الحضارة العراقية في قوانين حمورابي، والمواقع الأثرية البارزة في معبد أور وبوابات بابل وملوية سامراء. وبرزت الحضارة اليونانية في الميل إلى التأمل والفلسفة[2]. وتميزت الحضارة الفارسية بنظام للري عرفته مدينة شوشتر جنوب إيران، لايزال يعمل بكفاءة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة[3]. بينما تميزت الحضارة الصينية بسورها العظيم، الذي حمى الصينيين من غزوات قبائل الهون البدوية[4]. ولا يختلف الأمر بالنسبة للحضارة الهندية المعروفة بطرقها التجارية وتنوعها الثقافي ومعالمها الفريدة مثل تاج محل.

---

(١) حربي، مرجع سابق، ص٩٣.

(٢) أحمد مختار أمبو، منابع المستقبل، اليونسكو، باريس، ١٩٨٢م، ص٧٣-٧٢.

(٣) مصطفى زماني، من إبداعات الحضارة الفارسية القديمة، في:

http://hassanheha.forumn.org/t6307-topic

(٤) انظر: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٢.

وفي العصور الوسطى، حيث الحضارة العربية الإسلامية، برز الاهتمام بالفلسفة والأدب والعلوم كعلم الاجتماع والتأريخ وعلوم الأرض والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والهندسة والطب والصيدلة. ومن الفلاسفة والعلماء المشهورين: ابن سينا، وابن رشد، وابن طفيل، وابن خلدون، وابن بطوطة، والإدريسي، وابن الهيثم، والقرطبي، والرازي، وابن البيطار. وكانت لهم أبحاثهم المهمة في هذه العلوم وغيرها، ووضعوا مئات المؤلفات العلمية. وفي عهود الازدهار تقدمت الزراعة بفضل تقدم وسائل الري ومعرفة خواص التربة وأنواع السماد، وظهرت صناعات متقدمة كصناعة الورق والفخّار والفسيفساء، والزجاج والبارود والمنسوجات وغيرها[1]. واليوم أصبح التأكيد على الخصوصية الذاتية مطلباً ذا أولوية بالنسبة لكل الأمم، وبذلت الجهود لدعم الثقافة الوطنية وإعلاء شأنها. ويبدو اليوم وفي كل مكان أن الذاتية الثقافية أضحت تطرح كإحدى القوى الدافعة لحركة الشعوب، وإن حماية الخصوصية تعد عملاً لابد منه لإبراز قدرات الأمة الإبداعية.

---

(١) عبدالله ناصح علوان، معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، الإصدار الأول، بحوث إسلامية (١٧)، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، د.ت) ص ٢٣-٥١

٢- تباين مستوى الحضارات:

إن نمو الحضارة لا يتم بصورة أوتوماتيكية، ويتأكد ذلك إذا عرفنا أن عدة حضارات توقفت عند حد معين في مجرى حياتها، وذلك عندما واجهت أول تحد حقيقي. وبمقدار الرد عليه فإن حياة المجتمع تستمر بالازدهار. فحين يكون رد الأمة أعظم من التحديات، التي تواجهها ترتفع حضارتها إلى مستويات عليا في سلم الارتقاء الحضاري. أما إذا كانت تلك التحديات أكبر من الرد عليها، فإن الحضارة تتراجع ليس بفعل قوة خارجية، وإنما بسبب فساد المجتمع من الداخل، فالحضارتين الإغريقية والرومانية توقفتا؛ لأنهما لم تكونا قادرتين على النمو والتطور(١).

ولذلك لابد من التأكيد على تباين الحضارات، وذلك لأن كل واحدة منها هي نتيجة معطيات معينة في المكان والزمان، وهي تمثل نمطاً ثقافياً معيناً، تؤدي من خلاله دوراً تاريخياً. و قد قسم «دانيلفسكي Danylveski» شعوب العالم إلى ثلاث مجموعات وفقاً للدور، الذي تلعبه على المستوى الحضاري: الأولى تضم القوى الخلاّقة، التي أبدعت حضارات عريقة وراسخة، أما الثانية فتمثل الشعوب، التي لعبت دوراً هداماً في هذا المضمار، والثالثة تضم تلك الشعوب،

(١) Huntington, op. cit., p48ff وكذلك ؛ Leslie ,op. cit.p18.

التي لم تبلغ مستوى النضج الحضاري، الذي بلغته المجموعتان السابقتان، وتكون بالتالي خاضعة لقوى خارجية[1].

ولا يختلف الأمر بالنسبة لـ«توفلر Toffler» الذي تصور أنه يوجد في العالم ثلاث حضارات متباينة ومتمايزة، ومتعادية. حضارة الموجة الأولى وهي نتاج ثورة زراعية مرتبطة بالأرض. وحضارة الموجة الثانية وهي نتاج ثورة صناعية وتجارية مرتبطة بالمصانع. وأخيراً حضارة الموجة الثالثة وهي نتاج المعرفة، وترتبط بصورة أساسية بالحاسوب، وهذه الحضارات الثلاث هي بطبيعة الحال ليست متساوية[2].

إن التعدد الحضاري يقتضي بالضرورة تعدد طرق ومشاريع النهوض والتقدم، لاسيما وأن كل واحد منها يجسد المعطيات الخاصة بالأمة ومكوناتها القيمية، والتراثية، والاجتماعية والثقافية، كما يلبي طموحاتها وتطلعاتها نحو التقدم. ومن ثم فإننا نرى أنه من الخطأ القول: إن للتطور الإنساني طريقاً واحداً لابد من السير فيه، وإن الحضارة المعاصرة حضارة عالمية يتعين فرض وتعميم قيمها ومبادئها على مختلف الأمم[3].

---

(١) انظر: الزكي، مرجع سابق.

(٢) السقا، مرجع سابق، ص١٠٢-١٠٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: السقا، مرجع سابق، ص ١٠٦.

وبهذا التحديد يكون التمايز بين الحضارات أمراً طبيعياً، لا يؤثر في ذلك بطبيعة الحال التأثير المتبادل فيما بينها، طالما أنه لا يعكس حالة من الهيمنة. لاسيما وأن الحضارة الأدنى يمكن أن تصل إلى لحظة تصحو فيها وتصبح فيها راغبة وقادرة على النهوض، وبالتالي رفض الخضوع لغيرها من الحضارات الأخرى.

٣- التفوق الحضاري:

سرعان ما تظهر هذه الإشكالية عندما تستوعب حضارة ما الحضارات الأخرى التي تصل إليها، وتتحرك في التعامل معها باعتبارها الأرقى. إن مثل هذا الأمر يتم وفقاً لقانون ملء الفراغ. فهو يقضي بحلول الأقوى مكان الأضعف، أي أن حضارة ما بما بلغته من تفوق تعمل بقوانينها ومعطياتها الداخلية على سد الفراغ الناجم عن قصور أو ضعف غيرها من الحضارات الأخرى[1]. ويقدم لنا التاريخ العديد من الأمثلة على ذلك، من بينها وضع الحضارة الرومانية وحضارات الشرق الأدنى القديمة.

فرغم احتفاظ الثانية بخصوصيتها أثناء التداخل القوي مع الأولى، الذي بدا في التمسك بمعتقداتها ولغاتها المحلية، إلا أن السيادة ظلت طيلة فترة ازدهار الإمبراطورية الرومانية لحضارتها المتفوقة في إطار ما بات يعرف بـ«السلام الروماني». لقد أصبحت الحضارة الرومانية بمثابة حضارة

---

(١) أحمد، مرجع سابق، ص٣٣،٣٤.

وطنية للشعوب، التي خضعت لروما، تشهد على ذلك آثار المدن الرومانية في مختلف مناطق الإمبراطورية، وكذلك آثار مدرجاتهم وملاعبهم والطرق التي شقوها[١].

ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية، فقد أضحت في فترة وجيزة ليس فقط الحضارة الأرقى بل والأكثر انتشاراً. ولذلك شهدت العصور الوسطى تفوقها وازدهارها، وتأثيرها العظيم في الشرق والغرب واستمراره العدة قرون. أما الحضارات الأخرى فلم تكن تملك مقومات الاستمرار والتطور.

ويزداد الأمر وضوحاً بالنسبة للحضارة الغربية، فقد تميزت بخصائص في مقدمتها ارتكازها على التراث الكلاسيكي، لليونان والرومان، والمسيحية الغربية، والكاثوليكية البروتستانتية دون الأرثوذوكسية، واللغات الأوروبية[٢]، ثم الفصل بين الدين والدولة، والنزعة الفردية والتعددية السياسية وغيرها. ويرى الغربيون أن احتكاك الشعوب غير الغربية بهذا التراث كان احتكاكاً عقيماً وغير خلاق، ولم يحفز قوى النهوض والتطور فيها[٣]، مما يعني غياب الثقة فيما بينها.

---

(١) عبد العال، مرجع سابق، ص٢٤.

(٢) Northrop, op. cit., p186.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٥.

ج- غياب الثقة بين الحضارات:

إن المتتبع للاتصالات، التي جرت بين الحضارات خلال العقود الماضية سيلاحظ أنها تشير إلى إشكالية تتعلق بالثقة فيما بينها، قد لا يكون الأمر واضحاً للكثيرين في المجتمع الدولي بشكل عام. ولكنه يبدو غير ذلك فيما يتصل بالعلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية[1]، وقد أظهرت ذلك كتابات بعض المفكرين الغربيين المعاصرين أمثال «فوكوياما Fukuyama» و«هنتنجتون Huntington» و«لويس Lewis» وغيرهم. لذا نكتفي بالإشارة إلى غياب الثقة بينهما كمثال على ذلك.

إن إشكالية غياب الثقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية ترتبط عموماً بأربعة جوانب على درجة كبيرة من الأهمية، وهي الجهل بالآخر وعدم معرفته على حقيقته، وغياب النظرة الموضوعية، والخبرة الماضية وعدم محاولة الخروج عليها، وأخيراً بعض الممارسات غير الحضارية، التي يقوم بها متطرفون من الحضارتين. فلنتابع هذه الجوانب بشيء من التفصيل.

---

(١) قارن

Baylis, John and Smith Steve: The globalization Of World Politics, Oxford University Press, Oxford, 1998, p380 ff.

١- الجهل بالآخر:

إن نظـــرة الغـــرب والشـــرق، كـــل إلى الآخـــر مشـــوبة عمومـــاً بانطباعـــات تـــرتبط بترسـبات سـابقة وتوجهـات خاصـة بـبعض الفئـات كالمتطرفين من الطرفين[١]. ولم تكن تؤدي بطبيعة الحال إلى بناء علاقات قائمة على المودة والاحترام المتبادل، بل عززت مسار تفاعل سلبي لا يمكن أن يقود إلا إلى الصراع.

إن فكرة الصراع بينهما مبنية في أحد جوانبها على الجهل القائم بين أشخاص ذوي خلفيات ثقافية متباينة، ليس من المتصور أن يتوصلوا إلى كشف وفهم القيم المشتركة فيما بينهم. وقد بين تقرير «آنا ليندا» أن شخصـــاً واحـــداً من بين ثلاثة أو أربعـــة أشخاص من سكان إحدى ضفتـــي البحر المتوسط، على سبيل المثال، أتيحت لهم في العام الماضي فرصة لقاء أشخاص من الضفـــة الأخرى، ومع ذلك يوجد سوء فهم وغياب معرفة الشعوب لبعضها البعض، خاصة فيما يتعلق بتصور كل منهما لنظام قيم الآخر[٢].

---

(١) انظر لمزيد من التفاصيل:

Findlay and Others, Contemporary Civilization, Foresman and company, London, 1971, p207.

(٢) انظر: استطلاع رائد للرأي العام يلقي الضوء على التحديات الثقافية الرئيسية بالنسبة لمنطقة المتوسط، ١٥/٩/٢٠١٠م، في:

http://www.enpi-info.eu/main.php?id=22503&id_type=1&lang_id=470.

ويرتبط ذلك بطبيعة الحال بالمصادر الخاصة بتشكيل الثقافة، كالدين والأيديولوجيا ووسائل الإعلام. فقد كان للمسيحية الغربية دور مهم في تكوين التصورات المغلوطة عن الإسلام. كما ركزت الصهيونية على فكرة معاداته للديمقراطية، وتشجيعه للعمل الفردي وعدم المساواة بين المسلمين وغيرهم. وكان للإعلام الغربي دور كبير في التأثير على تكوين رؤية مشوهة عنه، مستغلة الجهل به وتصويره كخصم دائم للغرب وحضارته[1].

ويبين التقرير المشار إليه أن معظم المواطنين جنوب وشرق المتوسط يعطون الدين القيمة الأولى أو الثانية من حيث الأهمية، ويحرصون على نقله إلى أبنائهم. وبخلاف ذلك، يضعه الأوروبيون ضمن القيم الأقل أهمية بالنسبة لمجموع القيم الأخرى، التي يرغبون في غرسها في نفوس أبنائهم[2].

الغربيون عموماً يجهلون الإسلام فينظرون إليه على أنه دين صدامي يشكل خطراً يهدد العالم الحر. ويشير أحد التقارير أن المجتمعات

---

(١) انظر: عبد الفتاح علي الرشدان، تجربة الإسلام السياسي: حركات سياسية وحكومات في التعامل مع الغرب، في: أحمد البرصان ومحمد صقر(تحرير)، التوجهات الغربية نحو الإسلام السياسي في الشرق الأوسط، ط١ (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٠٠٠م) ص١٥٥-١٥٧.

(٢) انظر: استطلاع رائد للرأي العام...، مرجع سابق.

الأورو متوسطية، على سبيل المثال، تعاني من تصورات مشوهة ونمطية عن بعضها بعضاً، وذلك رغم زيادة الاحتكاك فيما بينها، وأن أكثر الاختلافات بين الشعوب الأوروبية، من جهة، وشعوب جنوب وشرق المتوسط، من جهة أخرى، ترتبط بمدى الإحساس بأهمية القيم الدينية، فهي تلعب دوراً محورياً في تحديد طبيعة العلاقات بين الثقافات المختلفة(١).

والشرقيون عموماً ينطلقون في نظرتهم للغرب من منظور أخلاقي ثقافي مرتبط بالمنظور الديني الآيديولوجي، فيرونه إباحياً فاسقاً ومفسداً مرتكباً للمعاصي، وشيطاناً أكبر عندما يتعلق الأمر بالفرد والأسرة والمجتمع الغربي. ولذلك يعمل الإسلاميون جهدهم من أجل البقاء خارج دائرة التأثير الغربي في هذه المجالات(٢).

أما المتشددون من الإسلاميين، وهم فئة قليلة، فإنهم يتبنون موقفاً سلبياً من كل ما هو غير إسلامي. فقد اعتقدوا أن العالم

---

(١) انظر: تقرير لمؤسسة "أنا ليند.."، في:
http://www.google.jo/webhp?hl=ar#hl=ar&site=webhp&source=hp&q=الاتجاهات+بين+الثقافات+في+المنطقة+الأورو-+متوسطية٢%D9%A01%D9%A0 &oq
انظر أيضاً:
Baylis,Op. Cit.,p380.

(٢) إياد البرغوثي، الإسلام والغرب.. إشكالية الوحدة والصراع، في: البرصان، مرجع سابق، ص١٣٥.

يعيش حياة جاهلية، من إلحاد وعلمانية، وأن القوى غير الإسلامية تحارب الإسلام، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم تقوم على محاولات الإخضاع أو التصفية.

ويترتب على جهل الغرب بالإسلام نتائج خطيرة، لعل أبرزها تجاهل الحضارة الإسلامية، والنظر إليها بازدراء. وهناك الكثير من الأمثلة، التي تدلل على ذلك، يكفي أن نشير إلى بعضها.

لقد تجاهل «جورج و. هيغل Hegel.George w»، مثلاً، الحضارة الإسلامية عند تحليل الحضارات السابقة(١). وصوّر اللورد «كرومر Lord Cromer» الشرقيين على أنهم سذج. وازدراهم «برنارد لويس Bernard Lewis»، عندما قال: إنهم «..قوم فاسدون مفسدون فوضويون، لا يمكن تحضرهم، وإذا تُرِكوا لأنفسهم فسوف يفاجئون العالم المتحضر بموجات بشرية إرهابية تدمّر الحضارات، وتقوّض المجتمعات..»(٢).

وترتب على موقف المتشددين الإسلاميين حدوث أعمال عدائية ضد الغربين ومصالحهم في مناطق مختلفة من العالم.

---

(١) انظر: فؤاد جابر الزرفي، هيجل والشرق: نقد المنهج واللغة في فلسفة التاريخ، في:
http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=626

(٢) عدوان الوريكات، برنارد لويس ومشروع الثورات والأردن؟، ٢٠١١/١٢/٤م، في:
http://www.allofjo.net/index.php?page=article&id=20364#.UWsal833IpQ

وفي أواخر القرن الماضي أخذ يتكرر الحديث بكثرة عن التطرف والعنف الإسلامي، ومع أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أخذ الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي باعتباره بؤرة للإرهاب.

٢- غياب النظرة الموضوعية:

يخطئ من ينطلق من أي تعميم عند تفسير المواقف، سواء بالنسبة للغرب أو فيما يتعلق بالشرق، إذ يوجد أكثر من موقف واحد لدى كل طرف. ومع التعميم يكون الطرفان هما الضحية.

ومن المهم والحالة هذه تناول هذه المسألة وإن بصورة سريعة.

- تعالي الغرب:

فالغرب القوي ينطلق من نظرة استعلائية تحجبه عن أية معرفة حقيقية للشرق الضعيف، ولا تزال هذه المعرفة محدودة وغير علمية في كثير من جوانبها، لاسيما وأنها في الغالب مبنية على أفكار شائعة مشوهة، وأحكام مترسبة في وجدان الغربيين، ومحكومة بالتفوق الغربي[١].

فالتفوق، الذي يتمتع به الغرب جعل الشعوب الغربية تعيش حالة من الإفراط في التمركز حول الذات. وهي حالة وإن كانت ليست فريدة في التاريخ، إلا أنها الأكثر طغياناً، وارتبط بها إحساس بأنه من واجب الشعوب

---

(١) حيدر، مرجع سابق، ص٩٨وما بعدها.

الأخرى، بل ومن الأسلم لها ألا تكون في حالة مواجهة مع هذه الذات المتمددة والمتسلحة بكل عناصر القوة[1].

لكن الحديث عن الذات العظيمة والمتفوقة لا تساعد بطبيعة الحال على إقامة أي علاقة تكاملية مع الذوات الأخرى؛ لأنه ينطوي على فكرة عدم قدرة الأخيرة على المنافسة، بمعنى أن أمم الشرق وهي تعبّر عن حضارات ضعيفة من وجهة النظر الغربية، غير قادرة على التسامي والوقوف إلى جانب الأمم الغربية على طريق التطور الحضاري[2].

- عدائية الشرق:

ساد الاتجاه الليبرالي عند العرب طيلة القرن الماضي، وظل الليبراليون منهم يعبّرون عن إعجابهم بالنموذج الغربي ولا يخفون رغبتهم في تقليده. وقد وجد هذا الأمر صدى واسعاً في الأوساط الشعبية في إطار عملية بناء الدولة المستقلة ذات السيادة. وبدا وكأن أنصاره قادرين على الاستجابة لطموحات شعوبهم[3]، لكنهم أخفقوا في أن يكونوا في مستوى ادعاءاتهم.

---

(١) قارن محمد راتب الحلاق، نحن والآخر (حمص: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٧م) ص٣٣.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص٣٧-٣٨.

(٣) انظر:

Baylis, Op. cit.,p376.

أخـــذت تبـــرز إلى حيـــز الوجـــود حركـات إسـلامية، تـدعوا إلى استعادة المســلمين لعهود ازدهـارهم وقوتـــهم. وقـــد لفـت هـــذا التطـور انتبـاه الـدول المختــلفة وبخاصـة الغربيـة الكـبرى منهـا، لاسـيما وأن تلـك الحـــركات تـدعوا إلى إقـــامة نظـم سياسـية جديـدة مـن خـلال طـرح فكـرة إحياء دولة الخلافة[1].

والأهم من ذلك هو أن بعض تلك الحركات تحمل الكراهية للغرب وتكـن لـه عـداءً شـديداً، وتـرفض كـل مـا يـأتي مـن عنـده بمـا في ذلـك الديمقراطيـة، مـن منطلـق أنها ولـدت نظمـاً فاسـدة لا تـتلاءم مـع الإسـلام ولايمـــكن إصلاحها. ولابد بالتالي من مهاجمتها وإسقاطها بكل السبل. وقد وجد هذا الموقف تعبيراته في ممارسات تلك الحركات.

٣- الممارسات العدائية:

تجـــد الانطبـــاعات السابقة انعكاساتـــها في العديد من الممارسات، التي تعبّر عن طبيـعـــة مســـار التـفـــاعـــل بين الطـــرفين. يبـــدو بعـــضها في ممارســـات غربية تجـاه الإســـلام، ويبـــدو بعضـــها الآخـــر في بعض ممارسات الحركات الإسلامية المتشددة، ولابد من الإشارة إلى بعض الأمثلة في هذا الخصوص.

---

(١) ڤارن عبد الفتاح علي الرشدان، تجربة الإسلام السياسي: حركات سياسية وحكومات في التعامل مع الغرب، في البرصان، مرجع سابق، ص١٤٥.

- **الممارسات الغربية تجاه الإسلام:**

شهدت الألفية الثالثة أنماطاً سلوكية تؤكد كراهية الغرب للإسلام عموماً، كما أن تكرارها في العديد من البلاد الغربية أثار الجدل حول ما إذا كانت مجرد تصرفات فردية لا تقرها المجتمعات هناك. ونحن هنا نكتفي بالإشارة إلى أبرزها.

- **مهاجمة رموز الإسلام:**

لقد شهدت السنوات الماضية أحداثاً عديدة فيها مساس مباشر بالإسلام كالاعتداء على القرآن الكريم بأكثر من طريقة. وكلنا نتذكر كتاب سلمان رشدي «آيات شيطانية». وكذلك التهجم على رسولنا محمد ﷺ بأشكال متعددة أيضاً، فضلاً عن المنابر الإعلامية من فضائيات ومواقع إلكترونية، التي تنفق الكثير من المال والوقت في مهاجمة رموز الإسلام ودعاته.

وعندما اقترحت منظمة المؤتمر الإسلامي عام ٢٠٠٨م على الدول الغربية في مجلس حقوق الإنسان اعتبار مهاجمة الأديان وتشويه الرموز الدينية شكلاً من أشكال التمييز العنصري، كان الرد بأن هذه المسألة تدخل في باب حرية التعبير عن الرأي. وذلك في سياق التمييز بين مفهوم انتقاد الأديان ومفهوم الحث على الكراهية الدينية على أساس أن هذا الأخير هو فقط، الذي يدخل في باب التمييز العنصري.

- القيام بأعمال التنصير في البلاد الإسلامية:

إن عمليات التنصير تجري على قدم وساق، وهي تأتي في سياق تنفيذ بنود مؤتمر «كلورادو» عام ١٩٧٩م، حيث تقرر فيه تنصير المسلمين على مستوى العالم، ورصدت لذلك أموال كثيرة. وقد بدا اهتمام البابا شخصياً بهذه العملية من خلال قيامه بتعميد مسلم مغمور اعتنق المسيحية. بينما لم يحتفل شيخ الأزهر بإسلام «رجا جارودي Raja Jaroudi» و«مراد هوفمان Murad Hofmann» وهما شخصيتان بارزتان عالمياً.

وكانت حملات التنصير تتركز في العصر الحديث في أطراف العالم الإسلامي والمناطق النائية في شرق وجنوب شرق آسيا، ووسط أفريقيا والمناطق الاستوائية. غير أنها أخذت مؤخراً تتغلغل في قلب هذا العالم، ففي العراق وصل عدد منظمات التنصير حتى منتصف عام ٢٠٠٨م أكثر من مائة منظمة. ووصلت إلى نحو خمسمائة منظمة في السودان قبل انفصال الجنوب. وقد اعتمدت في ذلك على ما تقدمه من خدمات اجتماعية، كالمعونات الاقتصادية والخدمات الطبية، والرعاية في دور الأيتام ودور المسنين، وتأسيس المدارس بمراحلها المختلفة[1].

---

(١) انظر سارة علي، مائة منظمة تنصيرية في العراق..، ٢٠٠٨/٣/٢٩م في:
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=142858
وكذلك كشف مخطط التنصير في العالم الإسلامي، في:
http://www.moslemonline.net/vb/showthread.php?t=1474

- ممارسات الحركات الإسلامية المتشددة:

لقد أظهرت بعض الحركات الإسلامية، كرد فعل، عنفاً شديداً إزاء مصالح الغرب في مناطق مختلفة من العالم وفي بلاد الغرب بصورة خاصة. وبدا ذلك واضحاً في الهجمات على برج التجارة العالمية في الولايات المتحدة، وفي دول عدة في أوروبا، فضلاً عن العديد من العمليات في آسيا وأفريقيا.

إن عداء الحركات الاسلامية المتشددة للغرب وعنفها تجاه دوله، يرتبط بعوامل عديدة، في مقدمتها موقفه من الحضارة العربية الإسلامية ودورها في التطور الإنساني، وتجاهل الكثير من تلك الدول لتطلعات شعوب العالم الإسلامي، فضلاً عن الميل للتدخل في شؤونها الداخلية على امتداد هذا العالم.

وعموماً، يمكن القول: إن كل حضارة غالباً ما تطرح مشكلاتها مع غيرها على أساس التعريف بها بشكل صحيح[1]. ولا شك أنه في ظل غياب الثقة بين الحضارات تصبح هذه العملية غاية في الصعوبة، وربما على العكس تزداد الفجوة فيما بينها، وبالتالي لا تتحقق الغاية المنشودة فتكون النتيجة عكسية، حيث التناقض والتنافر.

---

(١) قارن

Northrop, op. cit.,108ff.

د- الفجوة بين الحضارات:

إن الجوانب السابقة تسمح بالقول: إن ثمة هوة واسعة بين الحضارات، ويبدو هذا الأمر أكثر ما يكون وضوحاً في العلاقة بين الشرق والغرب، وذلك نظراً للخبرة المتوفرة لكليهما عن الحالة الصدامية القائمة بينهما عبر التاريخ. وتوقع البعض أن تكون الحضارة الإسلامية مركز الصراع مع الغرب في المستقبل القريب[1]، ثم خوف الغرب من الإسلام؛ كبديل للحضارة الغربية، إضافة إلى عن الجوار الجغرافي وبخاصة بين مهد الإسلام وأوروبا.

ويلاحظ أن أساس الفجوة ليس فقط عدم التساوي بين الطرفين على النحو، الذي أشرنا إليه، وإنما أيضاً ارتباطها بجوانب عديدة يبرز منها ثلاثة بصورة أساسية وهي الخبرة التاريخية للطرفين، وعدم التوازن بينهما في أمور عديدة، وأخيراً تصور كل منهما لذاته و(الآخر). ومن المفيد التعرف على هذه الجوانب بشيء من التفصيل

١- الخبرة التاريخية:

إن تاريخ التفاعل بين الشرق والغرب يعود إلى ما قبل ظهور الحضارتين الإسلامية والغربية، فقد غزا الفينيقيون والفرس أكثر من مرة

---

(١) انظر مثلاً:

Huntington, op.cit., p44

الأطراف الجنوبية والشرقية لأوروبا. وفعل اليونانيون والرومان الشيء نفسه، وأخضعوا لسلطانهم مناطق مختلفة من الشرق. وفي إطار هذا الصراع تم انتقال الفلسفة الإغريقية إلى الشرق، وانتقال الديانتين اليهودية والمسيحية منه إلى الغرب، ووجدت جاليات كل منهما في إقليم الآخر. وكانت السيطرة الرومانية على أراض شاسعة في آسيا وأفريقيا، ثم شن المسلمون حملة تحرير لأراضيهم من السيطرة الرومانية، وامتدت هذه الحملة إلى الغرب الأوروبي.

وأيًا كانت الاستفادة من الوجود الإسلامي في الغرب، فقد مثّل استفزازاً مباشراً للقوى الغربية، مما دفع الأخيرة إلى مقاومته في حركة مسلحة انتقلت، ابتداءً من القرن الحادي عشر، من تحرير أراضيها إلى غزو بلاد الإسلام، فيما عرف بالحروب الصليبية. لكن المسلمين طردوها في نهاية القرن الثالث عشر.

ومع نهاية القرن الثامن عشر بدأ الغزو الغربي للشرق الإسلامي بالحملة الفرنسية على مصر، وامتد إلى القرن التالي، حيث تحول إلى هجمة أوروبية واسعة أسفرت عن سيطرة استعمارية لمعظم أرجاء العالم الإسلامي، مع إقامة نواة المشروع الصهيوني في قلبه.

ومن بين السمات العديدة، التي يمكن أن يكشف عنها المتأمل في مسار التفاعل بين الشرق والغرب غلبة الأسلوب الصراعي بين الطرفين، مع

حدوث تحول ملحوظ في هذا المجال بالانتقال من المواجهة العسكرية الشاملة إلى الغزوات المحدودة. ثم التراجع عن الغزو العسكري إلى أشكال أخرى كالغزو الثقافي والسياسي والاقتصادي[1].

٢- عدم التوازن بين الغرب والشرق:

يبدو عدم التوازن بين الشرق والغرب في مظاهر عديدة يبرز من بينها ثلاثة بصورة رئيسة: تقدم الثاني مقابل تخلف الأول، مما يفرض نوعاً معيناً من العلاقة، وميل الشرق لربط الحياة السياسية بالدين مقابل سيادة الاتجاه العلماني في الغرب، وأخيراً هيمنة الحضارة الغربية دون منافس. وهي أمور لابد أن تؤثر على طبيعة المصالح المشتركة من جهة ومسار التواصل بين الطرفين من جهة أخرى.

- التقدم مقابل التخلف:

انطلق الغرب في تحديد طبيعة علاقته بالعالم الثالث، والشرق جزء منه، من خلال ما أنجزه هو من تطور حضاري، وبخاصة في الاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا، وذلك لما لهذه المجالات من تأثير على المجالات الأخرى، وبالتالي على مكانة الدول ومواقعها على المسرح الدولي.

---

(١) انظر: التفاعل الحضاري بين الصراع والحوار، مؤسسة المنصور الثقافية، ٢٠٠٢-٢٠٠٨م، في:
http://mansourdialogue.org/Arabic/lecs%20 (16).html.

فهو يعيش منذ وقت طويل حالة من التقدم تجسدت في القدرة على (خلق) الثروة والتكنولوجيا الحديثة وما يرتبط بذلك من ثورة في المواصلات والاتصالات والمعلومات. بينما لا يزال عصر الفحم والحديد، يمثل بالنسبة للدول الفقيرة، أكثر من حلم. ولم يتمكن الكثير منها من الاقتراب من تكنولوجيا المعلومات.

وأصبحت الدول المتقدمة تتحكم في السياسة الاقتصادية للدول الأخرى، حيث يبقى دور معظمها في الغالب تصدير المواد الخام والسلع الأخرى، التي تخفض من تكاليف عملية التصنيع، واستقبال الصناعات المعقدة كالسيارات والطائرات وأجهزة الكمبيوتر وغيرها من الصناعات الإلكترونية الأخرى.

ولا أحد ينكر أن جانباً من أسباب ضعف الدول النامية يرتبط بوضعها الداخلي، فالعادات والتقاليد المتخلفة والتركيب الاجتماعي البدائي يحول في كثير من الأحيان دون استيعاب برامج حديثة تسمح ببلوغ مستويات عالية من النمو الاقتصادي. ويقترن بذلك تغليب المصالح الفردية الضيقة على المصلحة العامة.

- الطابع الديني مقابل العلمانية:

لا شك أن الإسلام يمثل نظاماً شاملاً، ومعتقداته صالحة لكل زمان ومكان، لكن مفكرين غربيين ينظرون إليه كنظام ميتافيزيقي جامد لا يتغير،

ولا يمكّن المسلمين من التكيّف مع الظروف والأزمنة المختلفة. بخلاف العلمانية، التي تمثل نظاماً بلوّر بفضل العقل والعلم مفاهيم براغماتية حديثة ومعاصرة كالديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة .

لذلك يبدو في الغرب أن الإسلام الأصولي، يمثل أكبر عائق أمام تطبيق الديمقراطية. وذلك من منطلق أن مفاهيمه السياسية تختلف وتتناقض مع مقومات الديمقراطية، لاسيما وأن الشرعية الحكومية تنبع من العقيدة الدينية. ولذلك يلاحظ عدم تطبيق الديمقراطية إلا في عدد قليل من الدول الإسلامية مثل تركيا والباكستان(١). ولا يختلف الأمر فيما يتعلق بالتزام المسلمين بالحقوق الفردية للجنسين.

ومع أن هذه النظرة تفتقر عموماً إلى الكثير من الدقة، فإنه يلاحظ أن الغرب ينظر إلى مواقف المسلمين، متدينين وغير متدينين، على أنها مواقف متماثلة دون مراعاة للفروق الواضحة بين الحركات الإسلامية، حيث إنها جميعها لا تتفق على موقف موحد من القضايا المطروحة، ومواقفها متباينة في هذا الخصوص(٢).

---

(١) Huntington, op, cit., p113.

(٢) إياد البرغوثي، الإسلام والغرب.. إشكالية الوحدة والصراع، في: البرصان، مرجع سابق، ص١٣١.

ج- سيادة الحضارة الغربية مقابل غياب المشروع الحضاري الشرقي:

من المعروف أن الغرب تطور تاريخياً عبر مراحل عديدة، بحيث تمكّن من إنتاج أنموذج حضاري غاية في التقدم. وسرعان ما انتشر على نطاق عالمي ليطبع العالم بطابع ذلك النموذج. لذلك بدا أن العالم بات يشهد منذ القرن الماضي وجود حضارة متحكمة بقوتها وسائدة بقيمها. ففي منتدى دافوس الاقتصادي العالمي، مثلاً، يلتقي كل عام ممثلون لحكومات أو هيئات أو مؤسسات أكاديمية ذات اهتمامات دولية واسعة، وهم يشتركون في الأفكار الخاصة بهذه الحضارة، كالحرية الفردية، واقتصاد السوق، والديمقراطية.

أما الشرق فإنه يفتقر إلى المشروع الحضاري المعاصر القادر على مواجهة الحضارة الغربية، وذلك لأنه، من وجهة نظر البعض يرتكز على الدين الإسلامي، الذي ليس له في واقعه الحالي أي جاذبية خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية، صحيح أن الحضارة الإسلامية كان لها التفوق في العصور الوسطى لكنها أخذت تتراجع بعد ذلك[١].

لقد تصور «فوكوياما Fukuyama» أن الإسلام لن ينجح في أي مواجهة مع الحضارة الغربية، من منطلق أن زمن توسع الإسلام قد ولى. فهو غير قادر على كسب الشباب في أوروبا وآسيا، كما أنه ليس بوسع

---

(١) Fukuyama, op, cit., pp45-46.

المسلمين اليوم تحدي الديمقراطية الليبرالية في بلادها. والأكثر من ذلك هو أن العالم الإسلامي بات أكثر عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية، بعد أن جذبت الأخيرة الكثير من الأنصار من المسلمين أنفسهم(١).

٣- تصور (الذات) و(الآخر):

يعد تصور أية مجموعة حضارية لذاتها ولغيرها من المجموعات الحضارية الأخرى عاملاً أساساً في تحديد مسار التفاعل الحضاري. فتصور إحداها للأخرى، على أنها صديقة أو عدوة، يدفعها لتبني موقف ودي إزاءها في الحالة الأولى أو عدائي في الحالة الثانية. وهذا يعني أن التصور لـ(الذات) هو أحد محددات التصور لـ(الآخر)، فتضخيم (الذات) يستتبعه عادة تقزيم (الآخر)، والتصور الاستعلائي لـ(الذات) بدعوى التفوق غالباً ما يؤدي إلى تصور دوني لـ(الآخر).

ورغم أن العلاقة بين الحضارات ترتبط عموماً بتصور كل واحدة منها لذاتها وللحضارات الأخرى، على أساس ثنائية حادة واستقطاب متطرف بين الأنا والآخر، فإنه تبرز في هذا المجال ثنائية الإسلام والغرب. وقد ظهر هذا واضحاً في تسعينيات القرن الماضي، أي بعد انتهاء الحرب الباردة، حيث أصبحت العلاقة بين الطرفين تشغل موقعاً محورياً في الجدل الدائر،

Fukuyama, op, cit., pp46. (١)

ليس فقط بين الأوساط السياسية والفكرية الغربية، وإنما أيضاً بين الأوساط العربية والإسلامية على اختلاف اتجاهاتها الفكرية.

فإذا نظرنا إلى الغربيين، نجد بعضهم يتحدث عن تميزهم عن غيرهم من الكيانات القارية الأخرى، بثماني سمات فارقة وهي: اللغات الأوروبية، والتراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان، والمسيحية الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية، والفصل بين السلطتين الروحية والزمنية، أو بين الدين والدولة، والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني ، وحكم القانون، والهيئات التمثيلية، والنزعة الفردية[1].

وهذه السمات، هي من وجهة نظر «هنتنجتون Huntington» محورية وحاضرة في المجتمع الغربي، وتفاعلها هو الذي يعطى له خاصيته المميزة، ويمكّنه من امتلاك زمام المبادرة في تحديث نفسه، ويظهر عبقرية الحضارة الغربية وتفردها، وقدرتها على الإبداع. وستظل الحضارة الغربية أقوى الحضارات في العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين، وربما استمرت لها الصدارة لفترة طويلة في إمكانيات البحث والتطوير والإبداع التكنولوجي، المدني والعسكري[2].

ويقدم الغربيون الحضارات الأخرى على أنها هي الأدنى، ومن ضمنها الحضارة الإسلامية، وأنها ستظل كذلك رغم محاولات النهوض. فحركات

---

(١) Huntington, op, cit., pp69-71.

(٢) Huntington, op, cit., pp72-90.

الإحياء الديني معادية للعلمانية وللعالمية، ومعادية للتغريب[1]، وبذلك يظهر في هذه النظرة التعصب الأعمى والعنصرية بأبعادها النازية والصهيونية.

أما الشرقيون، وبخاصة المسلمين، فإنهم يتحدثون عن الحضارة الإسلامية، التي قامت على أساس التفاعل الإيجابي، حيث أخذت عن الحضارات التي سبقتها، وصهرت كل ذلك في بوتقة الإسلام[2]، فكانت بذلك حضارة إنسانية ذات بعد عالمي، ومنهجها التسامح والسلام، باعتبارهما الأصل في العلاقات بين الأمم والشعوب. وتراجع هذه الحضارة لا يعني إخراج الشعوب الإسلامية من دائرة الأمم المتحضرة.

وهم يرون أن نهضة الغرب وحضارته قامت على استعمار الآخرين اقتصادياً في المقام الأول، ثم عسكرياً، وأخيراً ثقافياً. فكانت أفواج القادمين إلى الشرق المستعمر تتمثل في الشركات أولاً، ثم الإدارة المدنية والجنود ثانياً، والتعليم والتبشير ثالثاً، والإعلام رابعاً وأخيراً[3]. فالغرب بهذا التحديد تحرك بصورة عدوانية، ونهب ثروات الشعوب الأخرى، وسيطر عليها، وحاول أن يغسل أدمغتها.

---

(١) قارن .Huntington, op, cit., pp73

(٢) انظر: الزيدي، مرجع سابق، ص٣٦.

(٣) حسن عبدالله الترابي، أطروحات الحركات الإسلامية في مجال الحوار مع الغرب، في: صاموئيل هنتنجتون، صدام الحضارات، شؤون الأوسط، ط١ (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٥م) ص١٢٨.

خامساً: فرص التكامل الحضاري

إن وجود الإشكاليات السابقة، التي تتمحور حول التحول في الوظيفة الحضارية للدولة، والتمايز الحضاري، وغياب الثقة بين الحضارات، والفجوة الواسعة بين الحضارات، لا يعني مطلقاً أن التكامل الحضاري بات أمراً غير ممكن، فالتواصل الحضاري يظل حقيقة قائمة، ويزداد وضوحاً يوماً بعد يوم.

يساعد على ذلك توفر المناخ، الذي يجري فيه من جهة؛
فضلاً عن توفر مقدمات التحرك نحو التكامل من جهة ثانية؛
ثم وجود الآليات الخاصة به من جهة ثالثة؛
ووضوح الخطوات الضرورية لإنجازه من جهة رابعة.
ومن المفيد التعرف على هذه الجوانب بشيء من التفصيل.

أ- توفر المناخ الملائم للتكامل:

ترتبط عملية التكامل بين الحضارات بتوفر ظروف ملائمة، تدور حول ثلاثة معطيات أو حقائق لها أثرها البارز في عملية التواصل الحضاري، وهي: وسائل الاتصال الحديثة، ومؤسسات المجتمع المدني، وأخيراً العولمة وما يقترن بها من تطورات. فلنتابع هذه الجوانب ولو بصورة سريعة.

١- توفر وسائل الاتصال الحديثة:

فقد شهد العالم خلال العقود القليلة الماضية ثورة هائلة في طرق المواصلات، من السيارة إلى الطائرة، وفي وسائل الاتصال من الهاتف الأرضي إلى الهاتف المحمول والفضائيات و«النت»، وما يقترن بها من برامج متطورة[١]. وفي السنوات الأخيرة تزايدت الصحف المحلية والأجنبية وكذلك المجلات والقنوات التلفزيونية وغيرها، وعلى نحو يمكن معه القول بسيادة الصورة السمعية والبصرية على غيرها من وسائل الإعلام. وهي الآن الأداة الرئيسة، التي يتم من خلالها تنميط الوعي والإدراك لدى الناس في مختلف مواطنهم.

ورحلات الأفراد وأسفارهم تساعد على الاحتكاك بين أبناء الأمم، وما ينجم عن ذلك من تأثيرات ثقافية. وقد يرى البعض أن للاختلاط آثاراً

---

(١) Northrop, op, cit., p42.

سلبية تجد انعكاساتها في بعض مظاهر العداء بين الأمم، كما يبدو أحياناً بين الذين يخشون اضمحلال الثقافات الشرقية أمام تيار الثقافة «الغربية». ولكن حتى هذا الجانب له تداعيات إيجابية؛ لأنه يحفز على حفظ الثقافات الشرقية من الركود والجمود، كما يحمل إلى الثقافة الغربية روعة الآداب الشرقية وسمو روحانياتها[1].

وفي ظل هذه التطورات التكنولوجية، لابد أن تتغير أوضاع الثقافات، إذ يجري التبادل الثقافي بين أبناء المجتمعات المختلفة من خلال تناول المعلومات وربما أنماط السلوك. ومن المحتمل أن يؤدي تطور وسائل الاتصال إلى نوع من التقارب وإقامة علاقات تتعزز فيها حالة السلام، دون أن تذوب أي ثقافة في غيرها من الثقافات الأخرى[2].

٢- وجود مؤسسات مجتمعية دولية:

لقد شهدت العقود القليلة الماضية نشوء مؤسسات مجتمعية تدفع في الاتجاه نحو مزيد من التفاعل، من خلال لعب أدوار مهمة في تحقيق درجة عالية من التواصل بين الأمم والتأثير في مسار الكثير من القضايا الدولية المشتركة. ومن بين تلك المؤسسات الصندوق العالمي لحقوق الإنسان،

---

(١) جاك أتالي، آفاق المستقبل، ترجمة محمد زكريا إسماعيل، ط١ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م) ص٦.

(٢) محمد كامل الخطيب، الشرق والغرب، القسم الثاني، ١٩٣٣-١٩٩٠م (منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩١م) ص٥٤٤-٥٤٥.

والاتحادات والمنظمات الدولية المختلفة، والمنظمات الدولية للمرأة، والمنتديات الدولية المختلفة. فما هي طبيعة هذه المؤسسات؟ نجيب عن هذا التساؤل بالإشارة إليها على النحو التالي.

- الصندوق العالمي لحقوق الإنسان:

وهو منظمة غير رسمية وغير ربحية، غايتها ضمان الكرامة والحرية للإنسان عبر العالم، والتصدي لانتهاكات حقوقه، وتقديم المساعدات اللازمة في هذا الخصوص، سواء للأطفال أو البالغين من الجنسين، وهو يتحرك بلا حدود.

- الاتحادات والمنظمات الدولية المختلفة:

كالاتحاد الدولي لنقابات العمال الحرة، أو الاتحاد الأفريقي لنقابات العمال. وكذلك المنظمات التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وهي تزيد عن ثلاثين منظمة. ومن الأمثلة عليها منظمة العمل الدولية، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية والصناعة، ومنظمة العفو الدولية. وهي تهتم بقضايا متعددة، كل حسب تخصصها.

- المنظمات الدولية للمرأة:

ومن أبرز تلك المنظمات: منظمة المرأة العربية، واتحاد النساء الديمقراطي العالمي، وصندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، ورابطة المنظمات النسائية الإسلامية العالمية، وهي تهتم بقضايا المرأة وطرحها في المحافل الدولية

- **المنتديات الدولية المختلفة:**

وهي المؤتمرات والمنتديات، التي تعقد من حين لآخر مثل المنتدى الاقتصادي، الذي أخذ يعقد بصورة أساسية في دافوس منذ عام ١٩٧١م، وقمة الأرض التي عقدت في ريو دي جانيرو في البرازيل عام ١٩٩٢م، ومؤتمر السكان والتنمية الذي عقد في القاهرة عام ١٩٩٤م، والمنتدى الاجتماعي العالمي الذي أخذ يعقد في بورتو اليجري في البرازيل منذ عام ٢٠٠٢م، والمنتدى الاقتصادي في البحر الميت في الأردن في أواخر مايو العام ٢٠١٣م.

إن مؤسسات المجتمع المدني العالمي تقوم بوظائف أساسية عديدة منها: التنشئة السياسية بشكل أو آخر، غرس منظومة القيم ذات الطبيعة العالمية والإنسانية العامة، التي تتجاوز النزعات والتعصب الإثني أو القومي، وتطوير الوعي بالقضايا والأحداث المهمة في السياق العالمي، والعمل على تقليص مساحات الصراع الاجتماعي. إن مؤسسات المجتمع المدني العالمي تعمل باتجاه تدفق معونات الشمال إلى الجنوب، إلى جانب قيادة عمليات الاحتجاج على مظالم الأولى[1].

---

(١) علي ليلة، قضايا ومشكلات عالمية معاصرة، ط١ (الكويت: الجامعة العربية المفتوحة، ٢٠٠٥م) ص١٥٤ وما بعدها.

٣- وجود قيم إنسانية مشتركة:

من المعروف أن القيم الرفيعة المشتركة، التي تشكل رافعة لكل تطلع حضاري بين الأمم والشعوب، هي عديدة. ويكفي أن نشير إلى بعضها، كالعدل، وتحريم العقوبات الجماعية، والبر والإحسان[١].

العدل قيمة عامة عليا يفترض أن تقوم عليها العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب والدول. إذ لا تستقيم الحياة البشرية في ظل غياب العدل؛ لأن فيه يكمن الإنصاف. وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لهذا الغرض، كما أنه حرّم الظلم على نفسه، وجعله محرماً بين الناس. والعلاقات الحضارية بين الأمم والشعوب، ينبغي أن تقوم على العدل، الذي ترتاح إليه الشعوب كافة، قويُّها وضعيفها. ولا يكون العدل حقيقياً إلا إذا أقر به الضعفاء والمغلوبون. أما «العدل» الذي يصنعه المنتصرون، ويئن تحت وطأته المستضعفون، فهو صورة من صور التسلط.

كما أن تحريم العقوبات الجماعية، أمر ضروري لإقامة علاقات حضارية مجدية لكل الأمم والشعوب. والقاعدة الإسلامية في هذا الخصوص تكمن في الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الزمر:٧)، وتعني أن لا تتخذ الحوادث الفردية ذريعة لمحاربة الشعوب والتهجم عليها، وربما غزوها واحتلالها، مع ما يتبع ذلك من تدمير وترسيخ

---

(١) نفس المرجع، ص١٥٨.

للعداوة والكراهية. لذلك تندرج هذه القاعدة ضمن أي تفاهم أو تحالف حضاري.

والبر والإحسان هما قيمتان إسلاميتان تعززان التعامل الحضاري بين الأمم والشعوب. وقد تم اعتماد هاتين القيمتين في علاقة العرب مع غيرهم حتى في زمن الحرب، وإرسال صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله، طبيبه إلى ملك الفرنجة أثناء الحروب الصليبية يؤكد ذلك. وقد دعا الإسلام إلى الالتزام بهما وبغيرهما من القيم الرفيعة الأخرى.

ب- المؤشرات الإيجابية للتكامل:

لقد جرت تحولات عديدة في مدركات الكثير من أفراد النخب الفكرية والسياسية من أبناء الحضارات المختلفة. ونتيجة لذلك أخذت تظهر بعض المؤشرات، التي تدفع باتجاه التكامل، سواء فيما يتعلق بالتغيّر في الصورة النمطية السائدة، أو فيما يخص تقدير جدوى الحوار، أو فيما يتعلق بإدراك أهمية تفعيل الجسور العالمية القائمة بين الحضارات. فلنتابع هذه الجوانب بشيء من التفصيل.

١- التغيّر في الصورة النمطية للآخر:

لابد أن نذكّر بداية أن الصورة النمطية للإسلام هي التي تعرضت للتشويه في الغرب، لذلك أصاب التغير تلك الصورة، وبدا ذلك في أربعة مظاهر أساس، على مستوى الدعوات الفردية، وعلى مستوى بعض المناهج

المدرسية، وعلى مستوى الكنيسة، وأخيراً على المستوى الشعبي. ومن المفيد الإشارة إلى هذه المظاهر.

فقد أخذت بعض الأقلام الغربية تركّز على نقد الذات ومن أبرزها دعوة المفكر الفرنسي «غارودي Garaudy» الغرب إلى إعادة النظر إلى ذاته وإلى الآخر والانفتاح عليه، والتعلم من الحضارات الأخرى؛ لأنها تظهر أن الفرد ليس مركز كل شيء، وتساعد على اكتشاف الآخر بدون حكم مسبق. أما «هوغ دي فارين Hugh de Varennes» فيرى أن على الغرب أن يعرف من خلال ثقافة الآخر مدى قدرة الحضارة الغربية على البقاء[1]. ولا ننسى دعوة زكي ميلاد إلى تجاوز إشكالية ثنائية العلاقة بين الشرق والغرب بتحقيق التعارف بين الحضارات، للرجوع إلى الأسس الثقافية أو الحضارية والدينية للأمم للاسترشاد بمخزونها الفكري في قراءة (الذات) ونقدها، وتحديد طبيعة العلاقة مع (الآخر)[2].

وتضمنت بعض المناهج التعليمية الأوروبية تغيّراً في الصورة النمطية للحضارة الإسلامية، حيث أصبحت بعض كتب التاريخ المدرسية تعرض الحضارة الإسلامية بصورة محايدة، وتشير إلى معاملة الإسلام للمسيحيين

---

(١) غارودي، مرجع سابق، ص٩٣، ١٩٠.

(٢) علي عبود المحمداوي، رؤية في العلاقة بين الغرب والشرق...، في:
http://www.kalema.net/v1/?rpt=828&art

واليهود كأهل كتاب، وتتحدث عن العلوم الإسلامية، ودور الترجمات العربية في حفظ التراث الثقافي والعلمي للإنسانية(١).

ولا يختلف الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية، فمقارنة الكتب التعليمية في الستينيات والسبعينيات بنظيراتها في التسعينيات وأوائل القرن الواحد والعشرين تظهر وجود تغير إيجابي في صورة العرب والمسلمين في مناهج التعليم، وبخاصة في كتابي التاريخ العام والمواد الاجتماعية؛ لأنهما يتطرقان إلى الإسلام(٢).

وتشير إحدى الدراسات إلى تحسن محدود ولكنه مشجع في موقف الرأي العام الأمريكي من الإسلام، حيث تراجعت نسبة من يعتقدون أن الإسلام يحض على العنف من ٤٤٪ في يوليو٢٠٠٣م إلى ٣٦٪ في يوليو ٢٠٠٩م، وزادت نسبة من ينظرون إلى مسلمي أمريكا نظرة إيجابية من ٥١% إلى ٥٥% في نفس الفترة(٣).

---

(١) انظر: تقرير فيديو كونفرنس صورة الآخر وثقافته..، في:
http://www.mohe-casm.edu.eg/Main_menu Studies%20and%20Cultural %20Research/image_of_Arab-Islamic_Culture/image_of_Arab_in_madrid/image_of_Arab_in_madrid.jsp

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: ميرزا الخويلدي، إياد قزاز: خلافاً للتوقعات.. تحسنت صورة العرب والمسلمين في مناهج التعليم الأمريكية، في:
http://www.aawsat.com/details.asp?issueno=9532&article=285647#.UYwoYc3fJVU

(٣) انظر: علاء بيومي، الإسلام في أمريكا: حقائق تدعو إلى التفاؤل، ٢٠١٠/١/٢٨، في:
http://www.thenationpress.net/news.php?lid=1&cat=5&newsi=1&newsid=13634

وقد شمل التغيّر الجانب الديني وبدا الأمر واضحاً في بيان المجمع الفاتيكاني الثاني، عندما تم التراجع عن كثير من المقولات، التي كانت ترى استبعاد العرب من وعد الخلاص الإلهي، من منطلق أنهم هراطقة، ودينهم غير عقلاني. فقد جاء في البيان أن «الخلاص سيشمل أولئك الذين يعترفون بالخالق وأولهم المسلمون»، وأن «الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم» ويقدرون أيضاً «الحياة الأخلاقية»، وتضمّن البيان الدعوة إلى الحوار وتناسي العداوات والصراعات السابقة[1].

٢- الرغبة العامة في الحوار مع الآخر:

لقد أخذ يظهر في الغرب وعي بالحاجة إلى آلية الحوار للدفع نحو التكامل بين الحضارات، ووجد هذا الوعي انعكاساته في مظاهر عديدة، من بينها، على سبيل المثال، توجّه الصحف البريطانية في العام ٢٠١٢م للتأسيس لثقافة الحوار وتقارب الحضارات. فبلغ عدد موادها الإعلامية في إطار تقارب الحضارات ٣٩ مادة من مجموع ٥٨ مادة إعلامية غطتها إحدى الدراسات، أي بما يزيد عن ٦٧٪. وظهر هذا التوجّه في الإعلام الفرنسي وإن كان بدرجة أقل، إذ بلغ عدد المواد، التي شملتها الدراسة في

(١) التفاعل الحضاري بين الصراع والحوار، مرجع سابق.

الاتجاه نفسه ٣٧ مادة من مجموع ٦٩ مادة إعلامية، أي بنسبة ٥٣,٦٪. وأظهـرت المطبوعات الألمانية الشيء نفسه ولكن أيضاً بنسبة أقل، حيث بلـغ عـدد المـواد الإعـلامية ١٥ مـادة مـن مجمـوع ٢٩ مـادة إعلاميـة أي بنسبة ٥١,٧ [1].

وفي الشـرق الإسـلامي، يعـد الحـوار واحـداً مـن المبـادئ الأساسـية في التعامل مع الآخر، وذلك وفقاً لقوله سبحانه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمـران: ٦٤)، ففـي هـذه الآيـة الكريمـة دعـوة صريحة إلى الحـوار البنـاء وبـدون تعصـب بـين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

ولا شك أن الطرفين يرومـان تصحيح الصورة السلبية لدى كل منهمـا عـن الآخـر، مما يفتح البـاب أمـام معرفـة موضـوعية لكليهمـا، تسـمح بدايـة بفهـم حقيقـي للمشـاكل، الـتي تعترض إحـلال السـلام وإيجـاد الحلـول لهـا، والتعايش والتعاون، ثم الانتقال إلى التحالف والتكامل.

---

(١) انظر قراءة في تقرير: حالة حوار الثقافات في العالم، ٢٤/٢/٢٠١٢م، في:
http://www.nama-center.com/ ActivitieDatials.aspx?Id=83

٣- تفعيل الجسور العالمية بين الحضارات:

إن بناء الجسور بين الدول المتقدمة والنامية، أو بين ما يسمى الشمال والجنوب، بتطوير التفاعل الإيجابي بين الطرفين، والارتفاع بمستوى الحياة في الثانية، هو عملية ليست حديثة، فهي تعود إلى سبعينيات القرن الماضي، لكنها كانت محدودة. وتتجدد مع الثورة الهائلة في وسائل الاتصال والمواصلات. ويكفي هنا أن نشير إلى بعض المجالات، ومنها على سبيل المثال[١].

١- إنشاء شبكة مؤسسات للبحث في مشاكل إنتاج الغذاء في الدول النامية.

٢- الاهتمام بالبحوث الخاصة بتطوير وتحسين صناعة المنسوجات القطنية.

٣ - الاهتمام ببحوث الأمراض الاستوائية، كما فعلت منظمة الصحة العالمية.

٤ - تعزيز برامج البيئة بمختلف جوانبها، كبرامج المنظمة الدولية لبحوث الخلايا.

٥ - الاهتمام ببحوث التنمية الدولية للتجديد التكنولوجي في البلدان النامية.

---

(١) كولن نورمان، العلم والتكنولوجيا، ترجمة سنية الجلالي (القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٨٣م) ص١٢٧وما بعدها.

ويبدو أن التكامل بين الحضارات لن يظل مجرد أمنية أو حلماً لحالة راقية يكون التناغم في ظله قائماً بين حضارات متعددة على أساس التنوع، فالمؤشرات السابقة تدعو إلى التفاؤل، مما يعني بطبيعة الحال النظر إليها جميعاً بعين الاعتبار والتقدير. إنها تعني تأسيس شراكة حقيقية بين أكثر من حضارة، وما يترتب على ذلك من تعاون حول كل ما تحتاجه عملية التطور الحضاري على المستوى الإنساني.

ج- أسس التحرك نحو التكامل:

من الطبيعي ألا يتم السير في طريق التكامل بصورة مفاجئة، إذ لابد من التمهيد له بعدة خطوات، لعل من أهمها: اكتشاف الآخر، والإقرار بالتكافؤ في الفرص، والاحترام المتبادل بين أبناء الحضارات. فما هي طبيعة كل واحدة منها؟ نحاول الإجابة عن هذا التساؤل بتناول هذه الجوانب على التوالي.

١- إعادة اكتشاف (الآخر):

وهذا يعني قيام كل أمة بعملية معرفية للأمم الأخرى بهدف الوصول إلى حقيقتها، والوقوف على موقع الآخر في أدبياتها، ومن ثم تحديد مدى استيعابها لمفاهيم التعددية الحضارية، وتجربتها التاريخية فيما يتصل بالتعايش وحسن الجوار، وكذا رؤيتها للحياة والعالم من حولها، وقدرتها على العطاء في إطار مشاركة حضارية.

ولابد أن تمهد لذلك بالتخلص من سلبيات القرون الماضية، وعرض مواقفها من كافة القضايا بكل صراحة ووضوح، فيتحقق بذلك الفهم المتبادل، وتكوين صور عن الواقع الحضاري تستند إلى قاعدة معرفية حقيقية. وليس هناك من سبيل آخر لإزالة المعوقات، التي تعترض أي لقاء جاد مع الآخر المختلف، وإفساح المجال للتعامل الودي والتعاوني، وبلورة رؤية أكثر موضوعية تؤسس لعلاقات طبيعية في المستقبل[1].

٢- الابتعاد عن الأحكام المسبقة:

إن التخلص من الصورة النمطية السلبية للآخر، تعني الابتعاد عن الأحكام المسبقة، تفرض ذلك التحولات الكبرى التي أصابت الحياة، بحيث بات المجتمع في عالمنا المعاصر يوصف عموماً بأنه مجتمع المعرفة. يساعد على ذلك تراجع الصورة النمطية السلبية للآخر بفعل تراكم المعرفة المتبادلة، وتنامي التوجه العقلاني بشكل عام. وكان هذا الأمر أكثر ما يكون وضوحاً فيما يتعلق بنظرة الغرب إلى الإسلام[2].

وقد وجد هذا الأمر تعبيراته في مظاهر عديدة، منها على سبيل المثال: ظهور كتابات غربية تعرض التصور الغربي للإسلام بصورة أكثر واقعية،

---

(١) قارن الويشي، مرجع سابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول ما تعرض له الإسلام انظر: زينب عبد العزيز، محاصرة وإبادة: موقف الغرب من الإسلام، ط١ (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م) ١٥،٠٠ وما بعدها.

ومنها كتابات «أرنولد فون Arnold von» و«ريتشارد سيمون Richard Simon» و«رولاند لوثر Roland Luther» و«مارتن لوثر Martin luther». وكان لمواقف بعض المفكرين مثل «لويس ماسينون Louis Massignon» دور واضح في تشجيع تحرك الغرب نحو الحوار المسيحي- الإسلامي(١)، وبروز الأسلوب الحواري والتعاون السلمي كاتجاه رئيس في التفاعل بين الشرق والغرب.

ومع أن نوعاً من الانتكاسة حدث مع انتعاش التفاعل الصراعي في أواخر القرن الماضي بفعل زهو الغرب بانتصاراته وانكفاء الشرق على تراثه، إلا أن مراجعة جديدة لصورة (الذات) و(الآخر)، ستؤدي إلى عودة النظرة الموضوعية(٢).

وهناك بوادر على السير في هذا الاتجاه، منها مثلاً انتقاد عدد من الأكاديميين المهتمين بالإسلام مثل «جون اسبوزيتو John Esposito»، النظر إلى بعض الدول، التي تختلف مواقفها على أنها تمثل موقفاً موحداً من الغرب، وتقديرهم للإسلاميين المعتدلين؛ لأنهم قدموا إسهامات حقيقية لتطوير المؤسسات المدنية في مجتمعاتهم، واهتموا بالبعد الديمقراطي فيها، وسمح لهم بالمشاركة في العملية السياسية، مما يشجع الغرب على الدخول في حوار مع المعتدلين الإسلاميين.

---

(١) التفاعل الحضاري بين الصراع والحوار، مرجع سابق.

(٢) نفس المرجع.

ومن المتوقع أن تستمر التوجهات الأحدث للصحوة الإسلامية في الميل نحو الاعتدال، رغم قيام بعض المتطرفين بين فترة وأخرى بأعمال مزعجة؛ لأن الاعتدال يشق طريقه في المؤسسات السياسية والاجتماعية، مما يؤدي في النهاية إلى تنمية المجتمعات الإسلامية من جهة وتحسين علاقاتها بالغرب من جهة أخرى[1].

٣- تحديد مرجعية التفاعل:

إن أي لقاء بين طرفين أو أكثر لا يستقيم إلا بالاستناد إلى رؤية مشتركة، تكفل ضبطه وتوجيهه الوجهة الصحيحة. ولذلك يجري الاتفاق بين الأطراف ذوي التوجهات المختلفة على رؤية واحدة، تمثل القاعدة المشتركة الأساسية، التي يتم تبادل الآراء في ضوئها والاحتكام إليها في حسم ما يطرأ من خلافات[2].

ولعل العقل هو الشيء المشترك في الحضارتين الغربية والإسلامية، فالغربيون يعلنون دائماً اعتمادهم عليه في كل شيء، والمسلمون لا يرون فيه أي تعارض مع الدين. فالشريعة تؤكد أن العقل البشري يمثل أصلاً من

---

(١) انظر: الرشدان، مرجع سابق، ص١٨٧ وما بعدها.

(٢) انظر: حوار الحضارات: المفهوم والمقومات، مؤسسة المنصور الثقافية، ٢٠٠٢-٢٠٠٨م، في:

http://mansourdialogue.org/Arabic/lecs%20(36).htm

أصـول المرجعيـة الشـرعية، وتـدعو إلى الاحتكـام إليـه في الحـوار مـع غـير المسـلمين، في مختلـف الموضـوعات. والقـرآن الكـريم يعتمـد في الإقنـاع علـى البراهين المنطقية والحجج العقلية[1].

وتحـديد مرجعـية الحـوار لابد أن يعتمـد على التوافق بين الأطراف إذا أريد لعملية التفاعل أن تتكلل بالنجاح، ولن يتحقق ذلك بطبيعة الحال إذا انفرد أحدها بصياغة أسس الحوار وقواعده. تؤكد ذلك خبرة الحوار بين الشرق والغرب في المراحل السابقة. فخلال العقود الخمسة الأخيرة من القرن الماضي، التي شهدت جولات كثيرة من الحوار بين المسلمين والغرب، اتخذت شكل مؤتمرات وندوات، كان الطرف الثاني هو الذي يحدد مرجعيتها، ويختار قضاياها وموضوعات برامجها، ولذلك لم تؤد إلى نتائج فاعلة للطرفين[2].

د- توفر آليات التكامل:

بعـد أن بـات التفاعـل بـين الحضـارات أمـراً حتميـاً، ظهـرت أربـع آليـات تشـكل أسـاليب ضبطه، اثنتـان منهـا اقترنتا بالصـدام، وهمـا الصـراع والتحـدي، واثنتان ارتبطتا بالتواصل الودي وهما الحوار والتدافع[3]. ومـا يعنينا هنا هـو التعرف على الآليتين الأخيرتين لأن عليهما ترتكز عملية التكامل في إطارها الطبيعي.

---

(١) نفس المرجع.

(٢) حسنه، مرجع سابق.

(٣) انظر: ليلة، مرجع سابق، ص٧٢.

١- الحوار:

حوار الحضارات هو تبادل لوجهات النظر والتشاور بين ممثليها حول قضايا البشرية، وبخاصة الثقافية والاقتصادية والسياسية، وتصورات ممثليها لكيفية مواجهتها، والتعامل معها وصولاً إلى تفاهمات معينة. إنه يعني التعاطي الإيجابي والموضوعي مع الموضوعات والقضايا المطروحة، والقدرة على التفاعل مع جميع الآراء في المستويات المختلفة لتحقيق الأهداف المنشودة.

إنه يرمي أساساً إلى التغلب على أسباب الخلافات، وبث روح الشراكة بين الثقافات، لاسيما وأن أي منها لا تحتكر الحقيقة، فالواقع يستلزم إقرار كل حضارة بأنها لا تملك سوى جزء منها. ولا تنكر على الأطراف الأخرى امتلاك الأجزاء الأخرى، وأن كل الحضارات قادرة على المساهمة بشكل أو بآخر في حل المشكلات الإنسانية.

وفي هذا السياق لابد أن نشير إلى أن فكرة الحوار مع الغرب ارتبطت بها عدة مسارات، متداخلة رغم تباين اهتمامات كل منها، وأبرزها وفقاً لتاريخ ظهورها: حوار الشمال والجنوب، والحوار العربي- الأوروبي، والحوار الإسلامي- الأوروبي.

حوار الشمال والجنوب بين الدول المتقدمة والدول النامية عقد مؤتمره الأول عام ١٩٧٤م، حيث ركزت الأولى على موضوع الطاقة بينما عنيت

الثانية بتثبيت أسعار المنتجات الأساسية وبقضايا التنمية والأمور المالية. ثم عُقدت المؤتمرات الأخرى بعد ذلك تحت شعار التعاون الاقتصادي[1].

والحوار العربي الأوروبي عقد لأول مرة في عام١٩٧٥م، بين المجموعة الاقتصادية الأوروبية وعدد من الدول العربية في إطار اهتمام الأوروبيين بإقامة علاقات طبيعية مع الدول العربية واستئناف تزويدهم بالبترول، وتركيز العرب على السلام والتنمية والمصالح المشتركة.

ولا يختلف الأمر فيما يتعلق بالحوار الإسلامي - الأوروبي، فقد عقد في نفس الفترة بين ممثلي دول منظمة المؤتمر الإسلامي وممثلي دول الاتحاد الأوروبي بهدف كسر الحواجز الفكرية والثقافية بين الطرفين، وخلق جو من الثقة والتفاهم بينهما للسير على طريق التفاعل الثقافي الإيجابي، و تعزيز العلاقات الإسلامية الأوروبية على قاعدة خدمة المصالح الحيوية المشتركة.

أما حوار الأديان فهو ظاهرة حديثة نسبياً، إذ يعود الاهتمام به إلى تسعينيات القرن الماضي، وذلك بهدف الوصول إلى اتفاق بين أصحاب الديانات السماوية حول قضايا عامة كالأخلاق الفاضلة وحقوق الإنسان وتحريم الاغتصاب. وقد عنيت به دولة قطر، حيث أنشأت مركزاً دولياً لحوار الأديان، كما احتضنت عشرة مؤتمرات كان آخرها في إبريل من العام ٢٠١٢م.

---

(١) عبد المنعم زنابيلي، الحوار بين الشمال والجنوب (دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي،١٩٨١م) ص٩ وما بعدها.

٢- التدافع:

يستند التدافع إلى المبدأ الوارد في القرآن الكريم، فوفقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة:٢٥١)، يكون التدافع تسابقاً وتزاحماً مستمراً بين الحضارات، تؤكد من خلاله كل منها حضورها ومساهمتها في تقدم البشرية وتطورها.

وهو يقوم على أربع قواعد أساس، أولها المساواة بين الناس على أساس وحدة الجنس البشري، والثانية تقبل الآخرين والتسامح معهم بما يفتح الأبواب واسعة للتفاعل بين الحضارات، والثالثة النظر إلى الصراع كحالة عارضة تتناقض مع الفطرة الإنسانية، وأخيراً التقوى بمعنى دفع الضرر عن البشر، وجعل البر أساس التعاون الإنساني[١].

وهذا يعني تواصل الحضارات وتعاقبها في سياق تفاعل إيجابي، بحيث يتحقق الاجتماع البشري رغم التباين والاختلاف في الآراء والمصالح والغايات، ضمن إرادة إلهية عبّر عنها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

---

(١) ليلة، مرجع سابق، ص٨، ٨٢.

هـ- العبور إلى التكامل:

تمر عملية التكامل بين الحضارات بثلاث مراحل مهمة هي: التعارف، والتعايش، وأخيراً التحالف. وهي تتميز بقدر من التداخل فضلاً عن التتابع، لاسيما وأن العلاقة بينها تتميز بالتسلسل المنطقي. فلا يجوز القفز عن أي منها أو إعادة ترتيبها بشكل أو بآخر. فلنتعرف على طبيعة هذه المراحل ولو بصورة سريعة.

١ - التعارف:

يمثل التعارف الخطوة الأولى على طريق التكامل، وهو يعتمد على الحوار، ويؤسس لأشكال وصور العلاقات الأخرى، كالتعاون والتحالف. وبقدر ما يتطور التعارف تتطور تلك الصور والأنماط. وهذا يعني أنه يؤسس للحوار الأرضية الملائمة، ويساعد على الارتقاء به، ولهذا يكون التعارف قاعدة الحوار وأداته.

كما أن للتعارف من الفاعلية ما يمكنه من إحداث تحولات مهمة في العلاقة بين الحضارات والأمم. ونتذكر في هذا المجال أن دخول المغول في الإسلام تم بعد معرفتهم له. لقد مارسوا عند غزو بلاد المسلمين أقصى درجات البربرية، ودمروا الحضارة الإسلامية. لكنهم ما لبثوا بعد معرفة

الإسلام أن اعتنقوه ودافعوا عنه[1]. فالجهل دفعهم إلى محاربة المسلمين، والتعارف قادهم إلى الإسلام والإيمان به.

علينا أن لا نخشى من الاتصال الثقافي بالحضارة الغربية. فهذه الأخيرة، التي حاولنا تقليدها صارت كلاسيكية، والجدير بأن تقرأ وتفسر في إطار فلسفة جديدة، ونحن نعيش السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين. من الضروري أن يتم التواصل مع جميع الثقافات بحيث تتحقق الغايات النهائية التي نسعى إليها. وفي هذا السياق يصبح من واجب الأمم الأخرى بعامة، أن تتواصل لتحقيق الانسجام الحضاري بشقيه الروحي والمادي.

فعلى مفكري الأمة الإسلامية العمل الجاد للاستفادة من الجوانب العلمية والمادية في الحضارة الغربية، حتى تستعيد الحضارة الإسلامية فاعليتها. كما أن عليهم تقديم المفاهيم والمناهج الحضارية الروحية القيّمة، التي تعين الغرب على تحقيق توازنه الاجتماعي، الذي يكاد يفقده، ويوشك أن يجر على نفسه وعلى الإنسانية ألواناً من التراجع والتدهور وما ينجم عن ذلك من فوضى وخراب.

وبدأ يظهر في الغرب إقرار بأهمية القيم الإسلامية في المساهمة في إعادة التوازن بين العالمين الغربي والإسلامي، والسير في اتجاه تحقيق

---

(١) لويس، لغة السياسة في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩-٢٠.

مستويات أعلى على صعيد الأداء الحضاري بشكل عام. ولا شك أن ذلك يتعزز بالحوار والتفاعل والتوافق والتعاون بين أبناء هاتين الحضارتين وغيرهما من الحضارات الأخرى[1].

٢- التعايش:

لا شك أن التعايش هو البديل للخصومة، وهو يتم بتفاعل الحضارات مع بعضها بعضًا، بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير. فالتفاعل البنّاء عملية تتجه نحو البناء والاستجابة الحضارية لتحديات العصر، بخلاف الخصومة، التي تعكس حالة صراعية تقود إلى الصدام وتدفع الغرب للوقوف في مواجهه الشرق متسلحاً بإمكاناته العلمية والمادية المتفوقة.

والإسلام ينكر النظرة المركزية، التي ترى العالم كحضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الحضارات الأخرى. فهو ينظر إلى المسرح العالمي كمنتدى حضارات متعددة لا تقوم على الانعزال، وإنما على التفاعل والتساند في كل ما هو مشترك وإنساني عام. ولا يتم ذلك إلا على قاعدة الإيمان بفلسفة الأديان وما يمكن أن تقدمه للبشرية[2].

---

(١) انظر:

Leslie, op, cit., p.8.

(٢) الخطيب، مرجع سابق، ص٥٤٤.

والتفاعل بين الحضارات لا يعني ذوبان حضارة في أخرى، إذ لابد أن تحتفظ كل واحدة منها بخصوصيتها. كما أنه لا يعني القطيعة المعرفية مع الماضي، إذ أن لكل حضارة موروثها التاريخي. بل إن هذا التفاعل مشروط بأن يتم في جو من الاحترام المتبادل والبعد عن التبعية والتقليد، كي يكون ذلك باعثاً على التكامل، الذي يُغني التجربة الإنسانية.

التفاعل الحضاري هو استجابة لعلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، والحضارة الغربية على وجه الخصوص. ولكي يتم هذا التفاعل بصورة صحيحة لابد من الأخذ بمنهج الوسطية الإسلامية دون تقليد؛ لأن التقليد الحضاري، يؤدى إلى التبعية للآخر والذوبان فيه، لاسيما وأن حياة أي حضارة، إنما تكمن في ما تملكه من إبداع[1].

ولكي يتحقق التعايش بصورة سليمة لابد أن يتم على قاعدتي التعاون وتوزيع الأدوار، بحيث تتحرك كل حضارة في عملية تعاون مشتركة وشاملة، وفقاً لما حققته من إنجازات تؤهلها للمشاركة في الفعل الحضاري، إذ تستطيع كل حضارة المساهمة وفق إمكاناتها، مهما كان حجمها ومستواها، الأمر الذي يعزز إحساسها بذاتها ودورها الإنساني في تحقيق التطور والتكامل الحضاري.

---

(١) الزكي، مرجع سابق.

٣- التحالف:

ظهرت فكرة تحالف الحضارات عام ٢٠٠٥م بمبادرة من إسبانيا، ثم تحولت إلى مبادرة بدعوة رئيس وزرائها لعقد أول مؤتمر لهذا الغرض في مدريد في يناير عام ٢٠٠٨م برعاية ثلاثة أطراف مركزية وهي إسبانيا وتركيا والأمم المتحدة، كتعبير عن موقف دولي يمهد لعملية استقطاب ثقافي عالمي[1]. وتوالت بعد ذلك المؤتمرات الدولية بصورة غير مسبوقة، فعقد المؤتمر الثاني في إسطنبول في إبريل عام ٢٠٠٩م، والمؤتمر الثالث عقد في الريو في البرازيل في مايو عام ٢٠١٠م، أما المؤتمر الرابع فعقد في الدوحة في ديسمبر عام ٢٠١١م، وعقد المؤتمر الخامس في فيينا في فبراير من العام ٢٠١٣م.

لقد أصبح مصطلح «تحالف الحضارات» يشير إلى حركة دولية تابعة للأمم المتحدة لها أمانة عامة مقرها نيويورك، وتتمتع بصفة الاستمرار والتواصل بين النخب والقيادات في مختلف المجالات. إذ يشارك في مؤتمراتها عدد غفير من رؤساء الدول ورؤساء الحكومات، وفي مقدمتهم الأمين العام

---

(١) المؤتمر الأول لتحالف الحضارات، ٢٢/١/٢٠٠٨، في:

http://www.alghad.com/index.php/article/451840.html

للأمـم المتحـدة، وإلى جـانبهم ممثلي العديـد مـن منظمـات المجتمـع المـدني ووســائل الإعــلام المخـتــلفة[1]. وبـات نـادي أصــدقاء هـذا التحـالف يضـم ٧٠ دولة و١٣ منظمة دولية.

وتعمل هذه الحركة على بناء تفاهـم بين الثقافات المختلفة، يقوم على تعزيز الاحترام بين الشعوب من أتباع الديانات المختلفة، ويؤدي إلى زيادة التعاون وصولاً إلى تحالف بين الحضارات في مواجهة المشكلات الدولية، التي تعترض العـلاقات الودية بين الـدول، سـواء عـلى المستوى الإقليمي أو الدولي، وفي مقدمتها الإرهاب[2].

---

(١) انظر: مصطفى عبد الله، تحالف الحضارات ما بين إعادة الاعتدال ونبذ التطرف، في: http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=1224530

(٢) انظر: تحالف الحضارات، التحالف من أجل السلام، في: /مكتبة/٦٧٥٧١- http://www.webislam.com

وكذلك مروة عامر، الشرق والغرب وتحالف الحضارات، http://www.islammemo.cc/hadath-el-saa/2006/12/03/22146.html

الخاتمة

يعبّر تكامل الحضارات، فيما أرى، عن مشروع مستقبل البشرية، الذي برز كرد فعل للتغيرات والتحولات السياسية والفكرية الكبرى، التي شهدها العقد الأخير من القرن الماضي. ومن بينها التفكير بصوت عال في أشكال الصراع المقبلة، بعد غياب المعسكر الاشتراكي، وكأنه، أي الصراع، بات الصورة الوحيدة لمسار التفاعل الحضاري. لكن ملاحظة الواقع، وليس التصور المجرد، تشير إلى احتمال آخر مختلف مع ما يكتنفه من صعوبات تعرض طريقه وتؤثر فيما يمكن أن يتوصل إليه.

من الطبيعي أن ينتهي البحث في موضوع التكامل إلى النتائج، التي أسفرت عنها مناقشة البنود المختلفة، ليس فقط لمعرفتها وإنما أيضاً لتحديد ما إذا كانت تدعو إلى التفاؤل أو أنها بخلاف ذلك مخيبة للآمال. وعلينا أن نقر بأنه أيًا كانت النتائج فإنها ينبغي أن تدفع باتجاه التفكير بالارتقاء بعملية التفاعل البشري، إذ ليس لنا في كل الأحوال خيار آخر. وليس من المجدي أن نقف مكتوفي الأيدي بخصوصها.

علينا الاعتراف بأنه ليس من السهل تحديد النتائج، وذلك لما يرتبط بها من إشكاليات عميقة كتلك التي تتعلق بالتحول في الوظيفة الحضارية للدولة كالتمايز الحضاري، وغياب للثقة بين الحضارات، فضلاً عن الفجوة

فيما بينها، ففي كل هذه الأمور يبدو الاختلاف واضحاً، إن لم نقل التناقض بين الأطراف المعنية.

لقد حاولنا أن نتناول تلك الإشكاليات، بعد أن مهدنا لذلك بتحديد مفهومي الحضارة والتكامل، وتحديد مبررات البحث في التكامل الحضاري، من منطلق أنه لا يمكن رؤية فرص تحقيقه قبل معرفة ما يكتنفه من عقبات. وختمنا البحث بالإشارة إلى ما هو متاح في هذا المجال. ومن الطبيعي أن تكون النقاط التفصيلية لهذا الجانب مجال بحث ونقاش، فقد تلتقي الأفكار حولها فتكون موضع قبول، وقد تفترق فيظهر الرفض.

وعموماً، يمكن القول: إن التحليلات السابقة تقود إلى عدة نتائج يمكن أن نميّز من بينها بصورة رئيسة ثلاث:

الأولى: أن فكرة التكامل بين الحضارات ضاعت بداية مع تزاحم الأفكار، التي تدور حول أهمية التعارف بين الأمم وثقافاتها المختلفة، لمعرفة حقيقتها وطبيعتها، وضرورة التعايش فيما بينها باعتباره الحالة الوحيدة، التي تمسح بالاستقرار والسلام كمدخل للتقدم والتطور.

والثانية: أن العقبات، التي تعترض التكامل المنشود هي من التنوع وقوة التأثير ما يجعل هذه العملية على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد، مما يعني أنها لن تتم بسهولة، وستستغرق وقتاً ليس بالقصير، وهذا أمر طبيعي، لاسيما وأننا بصدد عملية حضارية عالمية. ولعل من أخطر تلك العقبات

رغبة الحضارة الغربية في هيمنة من جهة، والمبالغة في تضخيم الخصوصية الذاتية للحضارات الأخرى من جهة أخرى.

أما **الثالثة**: فهي أن فرص التكامل على النحو الذي بيناه تشير إلى أن في العلاقات ما بين الحضارات ما يمكّن من التغلب على كل العقبات، وما يدعو إلى التفاؤل في المستقبل، من ذلك مثلاً سير تلك العلاقات في اتجاه متصاعد نحو التكامل من جهة، وشيوع ثقافة الحوار من جهة ثانية، وتعدد مستوياته من جهة ثالثة.

فالمتتبع لمسار العلاقات بين الحضارات منذ بداية العقد الأخير من القرن الماضي لابد أن يلاحظ وجود منحنى متصاعد في اتجاه التكامل، تقع عليه أربع محطات تاريخية، أولاها تراجع فكرة الصدام ليحل محلها التعارف، ثم يأتي التعايش، وأخيراً التحالف.

فالمحطة الأولى بدأت بتراجع فكرة الصدام حتى من قبل «هنتنجتون Huntington» صاحب نظرية صراع الحضارات نفسه، عندما أشار إلى أنه ليس هناك تحرك من الحضارات في هذا الاتجاه. الأمر الذي فتح الطرق للسير في اتجاه معاكس، فأخذ يظهر الاهتمام بالتعارف كمجال لفهم الآخر على حقيقته، بالاعتماد على مصادر موضوعية وبعيدة عن التحيز أو التشويه. وأخذت تظهر في ضوء ذلك الحاجة إلى التعايش بين الحضارات مع الاعتراف بالخصوصية الثقافية والحضارية،

لتعقد في السنوات القليلة الماضية خمسة مؤتمرات متقاربة لتحقيق التحالف بين الحضارات.

والمحطة الثانية تبدو في اتجاه الحوار نحو الانتشار على الصعيد الدولي، بحيث أضحت له الأولوية في اهتمامات النخب الفكرية، وبخاصة السياسية منها والدينية، والجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات الدولية ذات التخصصات المختلفة، سواء أكانت حكومية أم غير حكومية، مما يشير إلى الاهتمام بسياسة الحوار.

أما المحطة الثالثة فتظهر في انتقال الحوار جغرافياً، من إطاره الإقليمي (الحوار العربي الأوروبي) إلى الإطار القاري (الشمال والجنوب)، ثم الإطار العالمي (حوار الأديان)، وسيره في نفس الاتجاه من حيث موضوعات الحوار، إذ بدأ التركيز بداية على قضايا بعينها كالاهتمام بالبترول وأسعار المواد الأولية في النوع الأول، ثم تناول قضايا كالتنمية الاقتصادية في النوع الثاني، ثم الاهتمام بالدين والثقافة في النوع الثالث.

لقد بات واضحاً مع الصحوة الإسلامية وبروز الحضارة الصينية، والإقرار بالتعددية الحضارية، أنه لا يمكن لحضارة واحدة، مهما كانت درجة تفوقها، أن تفرض قيمها على الحضارات الأخرى، وأنه من الضروري لخير البشرية إفساح المجال لجميع الحضارات كي تساهم كل منها في دفع عجلة التطور والتقدم.

إن المستقبل، في ضوء ما تقدم وفي ظل مكتسبات العولمة، هو لصالح تكامل الحضارات، إذ ليس هناك من بديل عن ذلك سوى الدخول في نفق الصراع والصدام بين الأمم والشعوب، الذي قد لا تكون نهاية البشرية بعيدة عن آخره أو نهايته. ونحن لا نتصور أن يتم التكامل بسرعة طالما أنه عملية تراكمية، ونعتقد أنه يصبح من الضروري العمل على الاهتمام بكل ما يؤدي إلى مزيد من التعارف، وتعظيم القواسم المشتركة بين الأمم والشعوب، فضلاً عن تأكيد ديمقراطية الشراكة فيما بينها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

وكــلاء التوزيــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطــــر	دار الثقافــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ — الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحــرين	مكتبــــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ — البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويــت	مكتبــة دار المنــار الإســلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبــــة علــــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شـركة وكالـة التوزيـع الأردنيـة	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ — عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الــــيمن	مجموعــــة الجيـــل الجديـــد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١- ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الســـودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦- الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصــــر	دار الســـلام للطباعـــة والنشــر والتوزيـــــــــع والترجمــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر - القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
الجزائر	دار الــوعي للنشــر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية - الروبة -الجزائر
إنكلـــــترا	دار الرعايــــة الإســـــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

- **مدخل:**

لمحة تاريخية: نشأة نظام الحكم وتطور أشكاله؛ أهمية الحكم لإدارة المجتمع وتوفير الأمن وفض المنازعات؛ تعريف عام بأنظمة الحكم..

- **المحاور:**

- **في تحرير بعض المفاهيم والمصطلحات:** الحكم من مقومات الإسلام؛ الحاكمية: بين شرع الله ودور الإنسان في تنزيلها على الواقع؛ الأمة؛ الدولة؛ الحكومة؛ الولاية؛ الخلافة؛ الإمامة؛ تطبيق الشريعة وعلاقة التكليف بالاستطاعة؛ دار الإسلام؛ دار الكفر؛ دار العهد.
- **مقومات الحكم الراشد ومسؤولياته:** التزام الشورى في اختيار الحاكم؛ الشورى في إدارة شؤون الحكم؛ تحقيق مقاصد الشريعة حقوق الإنسان (العدل؛ الحرية؛ المساواة...)؛ شرعية المحاسبة والمسؤولية: مسؤولية الحاكم؛ مسؤولية المواطن؛ مسؤولية الأمة؛ مؤهلات أهل الحل والعقد.
- **غياب الفقه السياسي:** أسباب توقف الاجتهاد السياسي؛ الخروج على الحاكم، بين المصالح والمفاسد؛ نظام الحكم بين القيم الضابطة لمسيرة الحكم في الكتاب والسنة والبرامج الاجتهادية.
- **الاجتهادات التراثية ودورها في إعادة البناء:** أبعاد التجربة التاريخية؛ وعطاؤها في الحاضر والمستقبل؛ تجديد وسائل النظر، والاجتهاد لإيجاد أوعية شرعية لمسيرة الأمة والدولة والمجتمع؛ استئناف الاجتهاد السياسي في ضوء فقه النص وفهم الواقع وتحدياته.
- **الحكم ومعيار الشرعية:** الحكم الراشد: وعلاقة الأمن بالاستقرار والتنمية؛ الشراكة السياسية؛ المواطنة؛ المعارضة؛ التعددية؛ تشكيل الأحزاب؛ غير المسلمين....؛ منظمات المجتمع المدني؛ المنظمات الدولية؛ المعاهدات الدولية؛ مقارنات؛ ومقاربات معاصرة؛ وتميز مقاصد الحكم في الإسلام؛ بناء تصور سياسي للتعامل مع التحديات واستشراف المستقبل.

- **شروط الجائزة:**

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠.٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net